كلمة العدد

فيفري: قصة الموت والحياة

بقلم: محمد الرزقي

يعتبر شهر فيفري من اقصر شهور السنة، والذي يمثل خاتمة توديعية لفصل الشتاء، فتطوي هذا الفصل من كتاب السنة وتستقبل فصلا جديدا مفعما بكل معاني الحياة، هذا تمظهر الفصول وتعاقب الزمن أما تمظهر التاريخ والذي يشكل ذاكرة الأمم فيمثل هذا الشهر فترة قصية في سجل الذاكرة الوطنية إذ فيه ولد الشهيد ميلاد شاعر تونس الخالد الشاعر أبي القاسم الشابي، والذي أحب الحياة فأحبها الجميع فخلد هذه المحبة في قصائد تفطر وطنية وتفطر ألما لتتحول هذه القصائد إلى عنايات توقظ العقول وتحفز الهمم.

لذلك يمثل الاحتفال بمأوية الشابي حدثا ثقافيا استثنائيا يجب أن يشارك فيه الجميع وان لا يبقى حصورا في إطاره المحلي وهو ما أكد عليه الشاعر الفلسطيني المعروف سميح القاسم والذي صرح قبل انطلاق هذه الاحتفالية أن الشابي هو شاعر الأمة العربية لا شاعر تونس فحسب ودعى إلى أن يعم هذا الاحتفال جميع أرجاء الوطن العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما يوافق نهاية هذا الشهر وتحديدا يوم 22 فيفري ذكرى رحيل الإعلامي البارز صالح جغام الذي مثل احد مصابيح الإعلام في تونس فكلما نتذكره لا يسعنا إلا الترحم عليه نظرا لكثرة حنافيش الظلام والتي تزايد أعدادها هذه الأيام بصورة مفزعة فالرجل أحب مهنته واخلص لها فارتقى بنفسه وبما قدمه إلى سلم المجد والعبقرية والكل يتذكر مواقفه مع أشهر وجوه الغناء والتمثيل حتى انه ألغى يوم التسجيل مع فاتن حمامة لأنها أصرت أن بيت «إذا الشعب يوما أراد الحياة» لأحمد شوقي واحتذاء بهؤلاء الأفذاذ الذين تعودوا على التحديد والإضافة فبقيت سيرتهم محفزة للأجيال اللاحقة، قررت هيئة تحرير مجلة الإتحاف أن تخوض تجربة جديدة تتمثل في الانفتاح على الكتاب باللغة الفرنسية وتخصيص قسم قار لهم في المجلة.

فيسعد المجلة أن تتلقى مساهماتكم في هذا الباب كما يسعدها ويشرفها انضمام نخبة من أصحاب القلم الفرنسي إليها وعلى رأسهم الباحث شكري حفظ الله صاحب الإسهامات الكبيرة في حقل الترجمة والذي نقل الكثير من النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية إضافة إلى جودة دراساته في علم اللسانيات.

وأتمنى أن تحقق هذه التجربة النجاح والاستمرار فتتلاقح الآراء وتزهر الأفكار خاصة ونحن على أبواب فصل الربيع والقيروان اليوم عاصمة الثقافة الإسلامية في هذا العهد السعيد.

رسالة الغفران:

تزاورُ عن فهْمنا ذاتَ اليمين ثم تقْرِضُنا ذاتَ الشِّمَال و نحن في حيرة منها

بقلم: محفوظ علي غزال

الإهداء: إلى والدي علي غزال الذي علّمني في المهد صبيًّا عِرفانًا بجميل مَا لقّنَنيه في غير زجْر و علّمنيه في غير كِبْر.

مقدمة:

"الشيء من غير معدنه أغرب ومتى كان أغرب كان أعجب ومتى كان أعجب كان أطرب"[1] هكذا قال الجاحظ. و هكذا كان نص رسالة الغفران غريبا في جنسه ثعبانيا أفعوانيا كمقدمته لا تكاد تطمئن فيه حتى يبعث الحيرة إليك شهابا رصدا.

كان كما شاء المعري رحلة و كما شاء السياق رسالة نصًّا جامعا أرسل رياح النقد لواقح وحرّك الأقلام ريّضة جوامح وهو بين الحُجُب والسُّفور مسفار حمّال أوجُهٍ ينصت وكأنه لا يسمع و يسكت وكأنه لا يَفهم. غير أن أفندة النقاد هذا كله تهفو إليه و له عليهم أن يقضوا إليه حجًّا من استطاع إلى

---

[1] الجاحظ: الحيوان.

ذلك سبيلا بين سحر العبارة و لطف الإشارة و جرأة التصريح ورشاقة التلميح و عبث الكلام و سخرية المقام و نفح الخيال ولفح المقال وهُمْ منه في ظاهر و باطن و في هزل و جاد. كذا شاءه ضرير المعرة رهين الحبسين أبو العلاء المعري وليد القرن الرابع و شهيد القرن الخامس حيرة. فبعد أن لفظته أمّ دفر شرّ لفظ و آده عمى البصر على انتهاج طريق في وحار المجتمع البغدادي ركن إلى عزلة أربعين سنة كانت مسرحا لأهم مصنفاته. و منها نتناول بالتحليل رسالة الغفران التي امتلأ الآنح الغادي. علينا أن نجد إلى فهمه سبيلا. و يجدر بنا في هذا الموضع على سبيل التوضيح المنهجي أن نعرّج في غير إطالة ودون إخلال على رسالة ابن القارح.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسالة ابن القارح

ارتبطت رسالة الغفران ارتباطا مباشرا عند أغلب النقاد بالشيخ الحلبي علي بن منصور المعروف بابن القارح و الذي عُرف بتقلبه في الملاحظات مادحا متكسبا بأدبه. وقد بسم له الدهر في بلاط أبي القاسم المغربي و لكن لمّا دالت دولة آل المغربي وانتهوا إلى ضعف انقلب ابن القارح على أبي القاسم هجاء إذ يقول عنه: **وكان أبو القاسم ملولا والملول ربما مل الملال و كان لا يمل الملال ويحقد حقد من لا تلين كبده و لا تنحل عقده** ".

ولم يكن لأبي العلاء سابقُ معرفة مباشرة بابن القارح عدا أنه قد عـــلمهُ مدّاحا و منقـــلبا على مادحه هجوا فقال عنه مرّة لما سُـــئل عنه: "**أعرفه خبرا هو الذي هجا أبا القاسم المغربي**". وعلى هذا الأساس أراد ابن القارح برسالة التودّد التي بعثها إلى أبي العلاء أن يبرز انقلابه على أبي القاسم ليدرأ عن نفسه صفة الجحود التي ألصقها به كبير من أكابر العصر خاصة و أبو العلاء قد بلغ من الصيت ما لم يجحده ابن القارح نفسه في رسالته . كما أراد من ناحية أخرى أن يعتذر عن إضاعته رسالة كان أبو الفرج الزّهرجي أحد أدباء العصر قد بعث بها إلى أبي العلاء و أودعها عند ابن القارح فسُرقت - كما ذكر - في رحله الذي سرقه عديلـــه (صهره : المتزوج أخت زوجته) . لكن هذه الأسباب الظاهرة مهما بلغت من وجاهة فإنها لا تخفي سببا أهم و هو رغبة الشيخ الحلبي في ارتباط ذكره بأحد مشاهير العصر طلبا للشهرة و شيوع الذكر مستشفعا بما أعلنه في الرسالة من توبة نصوح بعد أن بلغ من الكبر عـــتيّـــا ومُتزلـــفا بما نفث فيها من سحر بيانٍ ظنه يرفعه عند أبي العلاء و يساويه به اقتدارا.

ويمكن أن نجمل مضامينها في:

- الشوق إلى ملاقاة المعري / الاعتذار عن ضياع رسالة الزهرجي/ تبرير هجاء أبي القاسم المغربي / إعلان التوبة / ذكر

أساتذته إبرازا لعلمه / التباهي بثقـــــافـــــــــته ومحفوظه /إظهار التقوى و انتقاد الزنادقة / مدح أبي العلاء وتمجيد علمه .

وبناءً على هذه اللمحة المختصرة حول المضامين يمكن أن نقول إن رسالة ابن القارح تجمع بين الطابع الإخواني و الطابع الأدبي ولكنها على كل حال توجب انتظار رد.

رسالة الغفران بين السرد و الترسل

من المسلَّـــم به في الظاهر على الأقل أن رسالة الغفران ردٌّ على رسالة ابن القارح .هذا و الرأي عندي أن رسالة ابن القارح وافقت من أبي العلاء عزما قديما و رغبة سابقة في تناول جملة من القضايا فلما وردت كانت القادح فجمع المعري إلى رغبته مناسبة الرد على صاحبها . وعلى هذا الأساس يمكن أن نقرَّها بعدين بعدٍ ذاتي يتصل بالرد على ابن القارح وبعدٍ موضوعي بمقتضاه تتحول رسالة الغفران بحثا في مسائل الإنسان عمـــوما و خاصة ما وقف منها العقل موقف الناقد الباحث. غير أن الذي ينصرف إليه البحث في هذا الإطار هو الإقرار بكون رسالة الغفران رسالة جوابية عن رسالة ابتدائية.

ولعل البناء العام للرسالة يؤكد انتماءها لهذا الجنس فقد اشتملت على:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ديباجة:(وقد عُرفت عند النقاد بالديباجة الأفعوانية أو الثعبانية لاشتمالها على حديث متعلق بالسَّوَام).

مقدمة مدحية: (متلونة تحتمل ظاهرا و باطنا).

قسم جوابي: ردَّ فيه المعري على المسائل التي طرحها ابن القارح مسألة مسألة .

ولكنَّ **المُربكَ أنَّ هذا البناء تضمن** نصا كبيرا ذُكرت فيه رحلة قام بها ابن القارح في كلٍّ من الجنة و النار و بما أن رسالة الغفران ردٌّ كتبه المعري على رسالة كان تلقاها من ابن القارح فإن وجود هذا النص فيها يبدو غريبا نوعا ما. و يتمثل وجه الغرابة في انتقال المؤلف الفجائي من الحديث عن رسالة ابن القارح إلى وصف الشجر في الجنة "و في تلك السطور كلام كثير كله عند الباري – تقدَّس – أثير فقد غـــــرس لمولاي الشيخ الجليل – إن شاء الله – بذلك الثناء شجر في الجنة لذيذ اجتناء[2].

و لعلَّ الطرافة القصصية تكمن في هذه النقلة من دنيا البشر إلى عالم آخر مفارق و عادي في آن واحد بمعنى أنه غريب عن تصور القارئ و في نفس الوقت غير مطلق الغرابة إلى الحد الذي يمتنع معه تصوره.

[2] حسين الواد: البنية القصصية في رسالة الغفران.

ليس مدحُ رسالة ابن القبارح في مقدمة رسالة الغفران – وإن كان ساخرا– خروجا عن الأساليب المألوفة في هذا الجنس **فالمراسلات بين الأدباء تصدَّر عادة بمدح ثقافة المخاطب و لكنَّ المعري أخرج هذه المعاني** (المدحية) **من وظيفتها المألوفة في المراسلات إلى وظيفة ثانية مستحدثة في رسالة الغفران و هي وظيفة التمهيد للخروج إلى القصة الخيالية**[3].

هذا التولـــــد للقصة داخل الرسالة– الجنس لم يعصف بالرسالة ولم يَعُقَّ المقام الترسلي لأن انفتاح الرسائل على السرد ليس بالغريبْ في الرسائل الأدبية لكنَّ الانفتاح بهذا القدر الاستطرادي هو الذي جعل الرسالة محل ثراء في الدلالة. و لذلك يسمِّيها فرج بن رمضان الرسائل السردية فهي تنفتح على السرد وتحافظ على مقتضيات مقام الترسل. كما يمكن أن تنتمي إلى النثر الفني بمقتضى فن القص الخيالي فيها.

وتبعا لما أسلفنا فإن خروج الكاتب من مقام الترسل القائم على المخاطبة إلى القصة القائمة على الإخبار إنما هو توسع في الترسل السردي... وقد عدَّ المعري نفسُه القسمَ القصصي شكلا منأشكال هذا الاستطراد فقال في خاتمته: وقد أطلت في هذا الفصل ونعود

---

[3] فرج بن رمضان: الرسائل الأدبية ص 214.

الآن إلى الإجابة عن الرسالة. فالقصة في رسالة الغفران وجه من وجوه تطوير الكتابة في مقام الترسل[4].

إلا أن أبا العلاء خالف سائر المترسلين فكان تطويره للكتابة في مقام الترسل خروجا من الإخبار إلى التخييل . ومن التحدث عن شخص تاريخي إلى الحديث عن شخصية قصصية صنعها خياله... ولئن أخرج المعري الترسل إلى دائرة الأجناس الخيالية فإنه لم يغفل في غضون القصة عن إدراج عناصر تذكّر بمقام الترسل كالدعاء والشروح اللغوية[5].

لا ريب إذن في كون الرحلة من الرسالة وفي كون السرد و الترسل في تحاور تكاملي فالمعري جعل ابن القارح مرسلا إليه و فاعلا في القصة ليتلاعب به و يعبث بكل وضعياته و صوره. وإذا كان شكل الرسالة عموما يوحي بالتباعد بين المرسل و المرسل إليه فإن المعري قد عمق هذا التباعد بـــ**إخراج المرسل إليه من المكان التاريخي إلى مكان آخر في عالم آخر لا يخضع للتاريخ**[6]. فالمعري إذن **يتخيل ذلك الزمن السردي ليحدث مباعدة بينه و بين المرسل إليه. و هذا مظهر آخر من مظاهر تصرف المعري في ابن القارح يمكن أن نستغله في تحليل سخرية الكاتب منه**[7].

---

[4] فرج بن رمضان: الرسائل الأدبية ص 210/209.
[5] ن.م ص210.
[6] ن.م ص213.
[7] ن.م ص212.

هكذا إذن يتظافر القص و الترسل. **فكان القسم الواقعي و القسم الخيالي متكاملين في الرد باعتبار أحدهما ردا هازلا و الآخر ردًّا جادًّا**[8] و هما مجتمعين أثرٌ واحد مثـــــل منعرجا في تاريخ الجنس الأدبي فالمعري قد جعلها نموذجا تحويليا يخرق قواعد الجنس من الداخل بفضل القصة الماورائية.

رسالة الغفران و تعدد القراءات

إنه متى كان الأثر الإبداعي ثريا كان متمنعا عن القراءة الواحدة وكان متعـــدد الاحتمالات و القراءات. وكذا كانت رسالة الغفران للمعري فالناظر في المدونة النقدية يلحظ بيُسر حجم ما كُتب حولها من قراءات نقدية تتفاوت قوة و منهجا و عمق تحليل و لكن الذي يجمع بينها هو أنها كشفت عن ثراء النص و غموضه و خلوده في آن.

1/ رسالة الغفران سخرية من ابن القارح و نيل منه: في هذه القراءة نتوجه إلى إثبات العلاقة المباشرة بين الرسالة و بين المرسَل إليه بمعنى أن كل ما فيها من خيال و سخـــــرية و تفنن في القص إنما هو بالأساس لغاية النيل من ابن القارح.

ففي الخيال يمكن أن نركز على الخيال الشهواني الذي يفضح ابن القارح و بذلك لم تكن **أنهار الخمرة و سُعُدُ الرحيق المختوم** سوى

---

[8] ن.م ص212.

تعريضا بابن القارح الذي عُرف في الدنيا بعشقه للملذات فصوَّره المعري عبدًا لهواه و من مظاهر اعتماد الخيال لفضح ابن القارح أيضا تلك المآدب التي كان يقيمها البطل إرضاء لشهواته و كذا قل في الحُور العين و الجواري الجميلات فعشق ابن القارح للمرأة واللذات الجسدية هي التي أملت على المعري أن يملأ له الجنة بالجواري والقيان .

2/ رسالة الغفران فضح للسائد و نقد للموجود و تشهير بالواقع: في هذه القراءة لا نعتبر ابن القارح مقصودا لذاته بل هو يمثل نموذج الإنسان أيام المعري بمعنى أننا نخرج من البعد الذاتي للرسالة إلى البعد الموضوعي بما فيه من فضح الممارسات السياسية السلبية كالظلم و الأنانية و تحقيق المآرب الذاتية والسخرية من **الواقع الاجتماعي** كالوساطات وانقلاب القيم و الميل إلى الهوى و اللذائذ. والسخرية من الواقع الأدبي كشعر المديح و السرقات والانتحال.

لا بد إذن أن نتبين الفرق بين مصطلح النقد و مصطلح الهزل و السخرية و الفضح فالنقد فيه طابع جدي و أما الهزل والسخرية و الفضح ففيه طابع هزلي و عندها لا بد من تناول الشكل أي الأسلوب الساخر لنبين أنه فضح و سخرية.

3/ رسالة الغفران تطاول على المقدس:

ويمكن أن تتبين هذه القراءة في مستويات مختلفة:

- تدنيس فضاء الجنة: إذ تتحول الجنة حيِّزا للعربدة و الجون والشذوذ و العنف اللفظي و المادي و هو ما لا يتناسب مع فضاء الجنة المقدس.

- التشكيك في العدل الإلهي : يظهر ذلك من خلال اعتراض بعض الشخصيات على الجزاء و العقاب كاعتراض نابغة بني جعدة على دخول الأعشى إلى الجنة حيث يقول: " **و لو جاز الغلط على رب العزة لقلتُ إنه قد غُلط بك" رسالة الغفران ص 229 ط دار المعارف تحقيق** بنت الشاطئ). و كاعتراض أوس بن حجر على وجوده في النار.

- إبطال الأحكام الإلهية: وتتبين ذلك من خلال تدخل آل البيت لتغيير مصير الشخصيات الحقيقي من النار إلى الجنة. فالتحويل اعتراض على الحكم الإلهي ومثال ذلك قصة دخول الأعشى إلى الجنة بفعل شفاعة علي بن أبي طالب.

- المساسُ بصورة الله: يبدو الله في رحلة الغفران ملبيا لرغبات أهل الجنة و شهواتهم فقد صوره المعري في صورة الساهر على راحة أهل الجنة و المطيع لأهوائهم حتى الشاذة منها و لا دور له في الجنة غير ذلك.

- إفراغ الوضعيات المصيرية من جديتها : التجأ المعري إلى الرسم الكاريكاتوري لبعض الوضعيات الجادة . و مثال ذلك انشغال البطل ابن القارح و بعض الشخصيات بمسائل لغوية ونحوية في يوم المحشر كما صوَّر يوم المحشر في مشهد تزاحم فوضوي. ومن الأمثلة على إفراغ الوضعيات المصيرية من جديتها ذلك الرسم الكاريكاتوري لمشهد عبور ابن القارح للصراط حيث صوَّره يعبر الصراط على ظهر جارية و قد حملته **زقفونة** في يوم وصفه النص القرآني بأنه تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت!!.

- الرسم المادي الدنيوي للجنة: إن امتلاء الجنة بالقيان و الجواري الراقصات والمغنيات يجعلها ذات طابع مادي خالص خاصة و قد حضرت فيها كل المتع المادية والحسية فكأن **عالم الجنة خلـــــــوٌ من الأبعاد الروحية و الدينية المقدسة.**

4/ رسالة الغفران تعبير عن القدرة الأدبية : و نتبين ذلك من خلال الشروح و الاستطرادات و وظائفها المذكورة سابقا. فهي تدل في بعض وجوهها عن رغبة المعري في إبراز كونه ضليعا مقارنة بابن القارح الذي لا يزال شاديا .

5/ رسالة الغفران ذات طابع تعليمي للقارئ:و هنا نعتبر الاستطرادات و الشروح موجهة لغاية تعليمية فتجمع الرسالة بذلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإمتاع و الإفادة و هي من خصائص الأدب عموما و الرسالة الأدبية تحديدا.

6/ رسالة الغفران و التحليل النفسي:

تُعتبر الرسالة في قراءة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمان تعويضا عمّا حُرم منه المعري في حياته فالامتداد تعويض عن سجن البيت و الوصف الدقيق المفصل و المتع البصرية تعويض عن إصابة العمى و المتع الحسية تعويض عما التزمه من شديد النظام في حياته.

خاتمة: إن قارئ رسالة الغفران كابن القارح يهرول مذعورا في جنتها بين القص و الترسل و بين الخيال و الواقع و بين الهزل و الجد كأنما قُدَّت من عالم غير المألوف . فهي تدنينا لتصدنا وتجُودُ لتجحَدَ .هكذا حالنا مع رسالة الغفران نزْأوَرُ عن فهمنا ذات اليمين ثم تقرضنا ذات الشمال ونحن في حيرة منها. فقد سعت لها أقلام النقاد قديما و حديثا و هي تجري بهم في موج كالجبال و ما إلى يقين من سبيل شأنها شأن النصوص المعالم التي ترقى إلى مصاف الإبداع الإنساني غير المحدود. وحسبنا منها إثارة بعض قضاياها وإنارة بعض زواياها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشيخ محمد الخضر حسين مفسرا

بقلم: د. أنور بن خليفة

يُعَدُّ الشيخُ محمد الخضر حسين من رواد الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة مثل محمد عبده (1849م-1905م) و رشيد رضا (1865م-1935م) و عبد الرحمان الكواكبي (1854م-1902م) وسالم بوحاجب (1828م /1925م) و غيرهم . ومِنَ المعروف أنّ شخصيةَ الخضر حسين رجل "الهداية" و صاحبِ "السعادة" شخصيةٌ ثرية متعددةُ الاهتمامات. فمنها الاهتمامُ الصحفي الذي بدأ به نشاطه، و منها الاهتمامُ التربوي – إذ اشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة و الأزهر– والاهتمامُ الفكريُّ الإصلاحيُّ الإسلاميُّ التنويريُّ و الاهتمامُ الديني الذي يتبوّأ مكانةً بارزةً في حياته إن لم نقل إنه يحتل الحيـــزَ الأوفرَ في شخصيته. وهو من رجال الفكر والأدب التونسيين مولدا و نشأةً ، ساهم في إخصاب التراث العربي الإسلامي بإنتاج ثري و متنـــــوع في الحقليـــن الأدبي والديني إذ كان رحمه الله" عَلَـــمًا من أعلام الإسلام و كان تعريفـــاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و تشريفا للتونسيين و جامع الزيتونة و مفخرة للمغرب الإسلامي كلـــه"[9].

و قد كان الرجلُ إلى جانب كلّ ما ذكرنا مُفَسِّرًا للقرآن الكريم –كما تشهدُ بذلك آثارُه– إذ كانت أغلبُ آثاره تتصل بالعلوم الدينية مباشرة، و كانت الطاغية على شخصيته الثقافية مما يجعل آراءَه في المجال الديني تستحق بحثا مفصلا، و خاصة تفسيره للقرآن الكريم.

و المُتَمَعِّنُ في إنتاج الخضر حسين في التفسير يُدْرِكُ دونَ عناءٍ أهميةَ منهجه في التفسير و استقلاليتـــه عن التفاسير السابقة و المعاصرة له، و الحديث عن الشيخ محمد الخضر حسين مفسرًا من خلال تفسيره "أسرار التنزيل" و بقية آثاره يقتضي منا التركيز على المسائل التالية:

– أولا : إنتاجه في التفسير.

– ثانيا : مصادره في تفسير القرآن الكريم.

– ثالثا : منهجه في تفسير القرآن الكريم.

---

[9]- علي الرضا التونسي " الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر" – مقال محمد الخضر حسين ذلك الجندي المجهول- بقلم عبد القادر سلامة- الدار الحسينية للكتاب ط 1 1992 م ص 146.

و لكن باعتبار أنّ ثقافة َالمفسّر و اتجاهاتِه الفكرية َو ما يسود عصرَه من علوم و مناهجَ و اتجاهاتٍ وأحداث مختلفة ينعكس غالبا على تفسيره بنا أن نقف على بيئته و تكوين شخصيته وختلف المراحل التي مرّ بها في حياته.

والشيخُ محمد الخضر حسين صورة ٌعن عصره الثقافي والبيئات المختلفة التي تقلـّـبَ فيها حيث وُلد في بلدة نفطة بالجنوب الغربي ·التونسي يوم 26 رجب 1293هـ/21 جويلية 1873 م[10] . في أسرة شريفة عُرفَتْ بعلمها و فضلها. و نفطة مدينة ٌذاتُ تاريخ عُرفت بأثرها في العلوم الدينية و الأدبية حتى لـُـقـّبَتْ "بالكوفة الصغرى" فقد برز فيها عددٌ من كبار العلماء كان لهم دورٌ بارزٌ في حفظ العلوم و نقلها إلى الأجيال اللاحقة عنهم . و قد تميّزت بكثرة مساجدها و ما كانت تقدّمهُ للتلاميذ الوافدين عليها من تعليم و تكوين إذ كان يقصدها طلبة ُالعلم من الجزائر و تونس..[11]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

[10]- اختلفت الروايات في ضبط تاريخ ميلاده :
- ذكر علي الرضا التونسي سنة 1874 م في كل ما نشر من مؤلفات الشيخ.
- أبو القاسم محمد كرو سنة 1876 م في "أعلامنا " تونس 1974م وكذلك دائرة المعارف التونسية ج 3 ص 690.

[11]- محمد الفاضل ابن عاشور " تراجم الأعلام 1970 م ص 190.

أما في أسرته فقد عُرفتْ أمه بثقافتها الواسعة و حرصها الشديدِ على حسن تربيتها لأبنائها و إشرافها على تعليمهم. و جدُّهُ للأم هو الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز. و قد اشتهر أبوه محمد بالعلم و الورع و الصلاح، تتلمذ على الصوفي الشهير الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهري ناشر الطريقة الرحمانية[12] . وخالُــه هو الشيخ محمد المكي بن عزوز العالِــمُ الجليلُ الذي وُلد سنة 1270هــ/1850م بنفطة و اشتهر بنبوغه في الفنون الأدبية و العلوم الرياضية و العناية بعلوم الحديث. وكانت له وجهةٌ إصلاحيةٌ و قد أشار الشيخ محمد الخضر حسين إلى البيئة العلمية الأولى حيث تلقى تكوينه الأول فحفظ القرآن الكريم و درس الكتب الأولى في علوم اللغة و الدين إذ يقول "نشأت في بلدة من بلاد الجــريد بالقطر التونسي يقال لها نفطة. و كان للأدب المنظوم و المنثور في هذه البلدة نفحاتٌ تهــبُّ في مجالس علمائها و كان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقتُ طعم الأدب من أول نشأتي وحــاولتُ و أنا في سن الثانية عشرة نظمَ الشعر "[13].

---

[12]- محمد الفاضل ابن عاشور " تراجم الأعلام 1970 م ص187.

[13]محمد الخضر حسين ديوان "خواطر الحياة " القاهرة سنة 1953 م ص 5.

و التحق الخضر حسين سنة 1307هـ/1887م بجامع الزيتونة و كان متهيئا لتلقي العلوم لما أُتيح له من تكوين خاص. وقد وافق دخولُهُ حركةً إصلاحيةً عميقةً شملتْ العلومَ و الكتبَ المقرَّرةَ و مناهجَ التدريس . و كان لهذا الإصلاح أثرُهُ الإيجابيُّ في تكوين شخصيته مع ما تلقاه من علم على عدد من الشيوخ الذين تأثر بهم و تلقى عنهم العلمَ و من أبرزهم الشيخُ سالمُ بوحاجب. والشيخُ عمر بالشيخ ومحمد النجار(1839م-1912م). و بذلك فقد تلقى علومَه من شيوخ تميزوا بالبراعة في التدريس والمحاضرة والتبحر في العلوم اللغوية و الشرعية و كان لهذا الاتصال أثرُهُ إذ تجلّت هذه الخصال فيه و ظهرت في مقالاته و محاضراته.

ثم انتقل إلى سوريا في ديسمبر 1912 م حيث استقر بدمشق مع عائلته، والدته و إخوته الأربعة الذين سبقوه إلى هناك و خلال إقامته كان مثابرا على نفس النشاط العلمي و الإصلاحي الذي كان يقوم به في تونس فكان يكتب المقالات في الصحف والمجلات و يلقي المحاضرات. و قد امتازت هذه المرحلة من حياته في سوريا بكثرة التنقل و السفر بين البلدان العربية و الأوروبية خاصة.

و من سوريا انتقل إلى مصر في 24 جويلية 1920م حيث قضّى فيها بقية عمره و قد توجّهَ اهتمامُه إلى تأسيس الجمعيات وواصل نشاطَـــه العلمي و الثقافي إذ كان يلقي المحاضـــرات والدروسَ الدينـــية بالمساجد و يكتب المقالات في بعض الصحف و المجلات لخدمة الإسلام و المسلمين. و انتـــُدب للتدريس بالأزهر في قسم التخصص سنة 1927 م و بلغ مجدَه العلمي و الديني حيث أصبح شيخا للأزهر يوم الأربعاء 27 ذو الحجة سنة 1371هـــ/ 17 ديسمبر 1952 م . و واصل جهودَه العلمية فكان ينشر البحوثَ الدينية و المقالات في بعض المجلات مثل " لواء الإسلام" التي كان أحد المشرفين عليها و محررا لقسم تفسير القرآن الكريم فيها تحت عنوان " أسرار التنزيل" ثم جُمعت هذه البحوث في كتاب واحد يحمل نفس الاسم بعد أن قام علي الرضا التونسي بجمعها وتحقيقها. و بذلك فلقد تكونت شخصية الخضر حسين تكوينا شاملا بعد أن مرَّ بمراحل عديدة و اتصل بشخصيات علمية.

و لئن امتازت المرحلة الأولى التي قضاها بتونس بالتعليم والتكوين، و اختصت المرحلة الثانية التي قضاها بالشام و بعض البلدان العربية و الأوروبية بكثرة التنقل و الترحال . فإن المرحلة

الأخيرة التي سماها محمد الفاضل ابن عاشور (16/أكتوبر/1909 / م - 19/أفريل/1970م). "مرحلة المجد الثقافي و الشهرة العلمية"[14] هي التي عرف فيها أعلى المراتب العلمية و أشرف على مشيخة الأزهر.

قد تبين لي، أن للشيخ محمد الخضر حسين مكانة علمية كبيرة و أنه يتميز بسعـــة المعارف و تنوع المؤلفات و غزارتها . فهو القائدُ الذي واجه الاستعمارَ الفرنسي في تونس ، فعمل على استنهاض الشعب بإبراز قيمة الحرية في الإسلام ،وقد دفع ثمنَ ذلك الهجرةَ من الوطن الذي نشأ فيه و ترعرع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد واجه تسلط أحمد جمال باشا وجبروته في دمشق خاصة مع المفكرين و رجال النخبة المثقفة. فعمل على بث العلم في صفوف شبابها من خلال تدريسه بالمدرسة السلطانية وشحذ هممِ رجالها من خلال إلقاء المحاضرات العلمية بالجامع الأموي . فدفع ثمنَ ذلك السجنَ و التعذيبَ .و تصدّى لخطر فكر أراد النيل من

---

[14]- في محاضرة ألقاها بمناسبة اربعينية الشيخ محمد الخضر حسين في 20 مارس 1958 م – محمد مواعدة " محمد الخضر حسين حياته و اثاره "ص86 .

الدين الإسلامي و سماحته في مصر فنقض كتابي علي عبد الرازق وطه حسين و عمل على تنظيم النظم الاجتماعية و تطوير ها(من خلال بعث الجمعيات) وأثرى الحياة الفكرية (إنشاء المجلات) فلاقى جزاء ذلك التدريس بالأزهر قرابة العشرين سنة و دخول هيئة كبار العلماء و تقلد مشيخة الأزهر.

و قد ساهمتْ هذه المحطاتُ في إثراء الزاد المعرفي و الفكري للشيخ حيث لاقى في كل مرحلة علماءَ الأمة و أقطابـــَها وهو ما ساهم في بلورة فكره الديني و ترجيح كفة العلوم الدينية في كتاباته ، ترجيحا توجَهُ باتجاهه إلى علم التفسير من خلال كتاب"أسرار الترتيل "الذي وضعه بداية من سنة1366 هـــ/ 1947 م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولا: إنتاجـــه في التفسير:

طرق الخضر حسين بابَ التفسير، فعقد دروسا دينية في تفسير القرآن الكريم[15] وكتَبَ في المجلات[16] وقد جُمعت

---

(15) دروس التفسير التي ألقاها في بعض النوادي والجمعيات الإسلامية والمساجد ونشرت في مجلة الهداية الإسلامية التي كان يصدرها المؤلف في القاهرة.

(16) مجلة "لواء الإسلام" التي كانت تصدر بالقاهرة وكان رئيسا لتحريرها بدءا من العدد 1 الصادر بتاريخ الأول من شهر مضان لعام 1366 هـــ/ 1947 م حتى العدد الثاني عشر من السنة الرابعة والصادر في شهر شعبان لعام 1370 هـــ / 1951 م.

وطُبعت و وزّعتْ ليعمّ نفعُها ويزدادَ أثرُها وقد "استمر في هذا العمل الجليل حتى أثقلتْهُ السنون وقد قارب عمرُه الطاهرُ الثمانين عاما "(17).

ولم تكن هذه الدروسُ والكتاباتُ على شيء من الكثرة، فلم يكن مقدارُ ما تناوله من آيات القرآن بالمقدار الكبير الذي كنا نرغب في أن تُزوَّد به المكتبة الإسلامية.

وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثرَ من تفسيره لسورة "الفاتحة"(18).

وكذلك قام بتفسير القسم الأكبر من سورة "البقرة" من بدايتها إلى الآية 193 من قوله سبحانه و تعالى: ﴿... فَإِنْ انْتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(19).

وقام بتفسير آيتيْ سورة البقرة (119-120): "من قوله تعالى﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ... إلى قوله ﴿...مَالَكَ من الله من وَلِي ولا نَصِير﴾(20).

(3) علي الرضا التونسي – تقديم كتاب "أسرار التنزيل" الذي قام بجمعه وصدر سنة 1976م.
(18) مجلة "لواء الإسلام" العدد الأول من السنة الأولى / كتاب "أسرار التنزيل" من ص 7 إلى 12
(19) مجلة "لواء الاسلام" من العدد الثاني إلى العدد السابع السنة الأولى / كتاب "أسرار التنزيل" 13-311.
(20) مجلة "الهداية الإسلامية" – الجزء الأول من المجلد الحادي عشر / كتاب "أسرار التنزيل" 318-322.

تفسير الآيات (52، 53، 54، 55) من سورة آل عمران، أي من قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ... إلى قوله ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[21].

تفسير الآية (159) من سورة آل عمران من قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ... إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[22].

تفسير الآيات (24، 25، 26) من سورة "الأنفال" من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ.... إلى قوله ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[23].

تفسير الآيات (62، 63، 64، 65) من سورة يونس من قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ... إلى قوله ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[24].

تفسير الآيتين (27، 28) من سورة "الحج" من قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ... إلى قوله ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[25].

ARCHIVE

---

(21) ن م – الجزء الثاني من المجلد الثامن عشر / كتاب "أسرار التنزيل" من الصفحة 323 إلى 328.

(22) ن م – ج 3 مج 11/ كتاب "أسرار التنزيل" من ص 329 – إلى ص 333..

(23) ن م – ج 2 مج 11/ كتاب "أسرار التنزيل" من ص 334 إلى ص 340.

(24) محمد الخضر حسين كتاب "أسرار التنزيل" من ص 341 إلى 345.

قام بتفسير خمس آيات من سورة "ص" (21، 25) من قوله تعالى ﴿... وهَل أَتاكَ نَبأ الخَصْم...﴾إلى قوله﴿ إنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب﴾[26].

ونجد من آثار الخضر حسين في التفسير تلك الدروسَ التي ألقاها في الأزهر الشريف "محافظة على سُنَّة الكثير من أهل العلم حيث يمرُّون بالأزهر "[27] فقام بتفسير الآيات :

(122) من سورة "التوبة" من قوله تعالى ﴿ وَ مَا كَانَ المُؤمِنُونَ لِيَنْفُرُوا كَافَة ...﴾ إلى آخر الآية.

(26) من سورة "غافر" من قوله تعالى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُم ...﴾الى آخر الآية.

(22) من سورة "الأنبياء" من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَة ...﴾ إلى آخر الآية.

(69) من سورة "يس" من قوله تعالى ﴿وَمَاعَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ...﴾ إلى آخر الآية[28].

---

(25) مجلة لواء الإسلام العدد 4 من السنة 1- كتاب "أسرار التنزيل " من ص 346 إلى ص- 35.

(26) مجلة "الهداية الإسلامية " ج 4 من المجلد 11- كتاب "أسرار التنزيل " من ص 351 -358.

(27) محمد الخضر حسين من دروسه في التفسير التي ألقاها في الأزهر - نشرت بجريدة الزهرة يوم الثلاثاء 17 ربيع الثاني 1331هـ/ 25 مارس 1913م.

(28) ن م .

وقام بتفسير الآيات (21، 22) من سورة "البقرة" من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ .... إلى قوله ﴿... سورة تعلمون ﴾[29].

وكنا نجد له بعض البحوث التفسيرية عالج فيها بعض مشكلات القرآن ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات كشرحه لقوله تعالى ﴿ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ...﴾[30].

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا...﴾[31] وقوله ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[32].

وقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[33].

---

(29) ملخص درس من دروس التفسير التي كان يلقيها في دار جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة – وقد نشر في مجلة "الهداية الإسلامية" ج 12 من مج 13 – كتاب "أسرار التنزيل" من ص 312- إلى 317

(30) الآية (03) من سورة القيامة – "محمد رسول الله وخاتم النبيين" ص 44.

(31) الآية (157) من سورة الأعراف – ن م ص 45 46.

(32) الآية (21) من سورة الأنعام – ن م ص 46.

(33) الآية (36) من سورة يس – ن م ص 48..

و قوله تعالى ﴿وَإِن أَحَد مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ... ﴾"[34] وكانت له بعض المقالات المتضمنة لتفسير بعض الآيات مثل قوله تعالى ﴿إِنَّهُم إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُم ... أَكْثَرَهُم فَاسِقُون ﴾[35].

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الذّينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ...﴾ إلى قوله ﴿... الأَقْرَبِين﴾[36].

قوله تعالى﴿ إِنَّ الذّينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى...﴾ إلى قوله﴿... يَلْعَنُهُم اللاَعِنُون﴾[37].

هذا كلّ ما للخضر حسين — رحمه الله — من إنتاج في التفسير وهو على قلّته عمل كبيرٌ وعظيمٌ بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح وما يحمل في طياته من توجيه حَسَنٍ في التفسير وحَسْبُ الشيخ أن يكون قد لفت قلوبا كثيرة من المسلمين إلى القرآن بعد أن أعرضوا عن هديه وضلوا عن إرشاده وتلك حَسَنَةٌ نرجو له برّها وذخرَها عند الله تعالى .

---

(34) الآية (06) من سورة التوبة- ن م ص 108.
(35) الآية (20) من سورة الكهف - ن م ص 109
(1) الآية (135) من سورة "النساء"- ن م ص .
(37) الآية (159) من سورة البقرة- "محمد رسول الله وخاتم النبيين " ص 110.

وهذه القلة في التفسير لا تعني مطلقا أن الشيخ لم يكن مطلعا على ما كتبه أهم أعلام التفسير سواء ممن سبقه أو من عاصره، وهو كما ذكرنا سابقا يـــُمضي أغلب أوقاته في القراءة والاطلاع على أمّهات الكتب و هو ما يوضّح بصورة جلية تنوُّعَ مصادر الشيخ في التفسير و ثرائها .

ثانيا: مصادره في تفسير القرآن الكريم:

كان الشيخ يستند في تفسيره للقرآن الكريم على كتاب الله تعالى ذاته إيمانا منه بأنه مصدر للتفسير باعتبار أن ما أُجمل في موضع قد فُصّل في موضع آخر، و ما أُبهم في آية قد عُيّن في آية أخرى.... و كان يستند أيضا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم و بيان السلف من الصحابة و التابعين استنادَه إلى أساليب اللغة و البلاغة و ما كتبه المفسرون ولكنه لم يُلـــْغ عقله بل كان يضع هذه المصادرَ و المراجعَ كلـــّها أمام نظره .

وقد كان الخضر حسين ينهج في الإشارة إلى مصادره ومراجعه الطرقَ التالية: إما أن يصـــرّح باسم المؤلف و لا يذكر اسم الكتاب. و إما أن يذكر اسم الكتاب ولا يصرّح باسم

مؤلف. و إما أن يصرح باسم المؤلف و الكتاب معا. وسوف أستعرض مصادر اختصر حسين من خلال ثلاثة أوجه رئيسية:

أولا: مصادره في التفسير و علوم القرآن.

ثانيا : مصادره في الحديث و علومه.

ثالثا : مصادره في اللغة و النحو و الآداب .

أولا: مصادره في التفسير و علوم القرآن:

- التفسير : إن المتأمل في تفسير الخضر حسين يقف على مصادر متنوعة في العلوم الإسلامية الأساسية و خاصة التفسير وكان اعتماده الأكثر في هذا العلم على تفسير الزمخشري (ت538هـ) "الكشاف" وابن العربي (ت638هـ) في تفسير آيات الأحكام "واضح السبيل إلى معرفة قانون التأويل بفوائد التنزيل "و كشف المعاني " لابن جماعة "(1422م-1457م) وتفسير القاضي البيضاوي (ت658هـ/ 1286م) " أنوار التنزيل و أسرار التأويل " .

و رغم أنه لا يغفل عن ذكر المصادر و المراجع التي ينقل عنها إذ تجده في عديد المقالات يعدد كتب التفسير التي نهل من معينها و التي ركز عليها أثناء تفسيره للقرآن الكريم فهذا لا يعني

حصره لكل ما جاء في تفسيره من مراجع فقد نجد الكثير منه لم يتطرق إليه بالذكر إذ نجده رجع في بعض المواضع إلى كتب "شروح الكشاف" للجرجاني (1340م/740هـ) و ابن جرير الطبري (ت310هـ) ويكتفي في بعض الأحيان بالإشارة إلى ذلك بالقول " ذهب كثير من المفسرين إلى" و" قال المفسرون " "جمهور المفسرون " دون الإشارة إلى الكتب .

وبذلك فإن الخضر حسين في اعتماده على بعض أعلام المفسرين قد انتهج الطرق التالية:

- نقل بعض المواقف و الأفكار و الآراء و مخالفتهم في مواقف أخرى كما فعل مع الزمخشري.

- مجرد النقل الحرفي لمواقف مفسرين آخرين طالما اعتبرهم معلمين له و درسهم لتلاميذه، فالتقى معهم في الأفكار و الآراء مثل البيضاوي و ابن العربي .

- الاعتماد على بعض المفسرين لتدعيم مواقف يراها و ذلك قصد تدعيم و إثبات توجهاته.

- **علوم القرآن:** اعتمد الخضر حسين في مجال علوم القرآن على السيوطي (1445م/1505م) في"الإتقان" إذ نجده يُكثر من

الرجوع إليه في أغلب مقالاته المتعلقة بالقرآن و خاصة في تفسيره "أسرار التنزيل".

و للإشارة فإن السيوطي قد مثّل مصدرا أساسيا في علوم القرآن بالنسبة لجميع المفسرين من بعده و خاصة في العصر الحديث.

ثانيا : مصادره في الحديث و علومه.

الدّارسُ لتفسير الخضر حسين "أسرار التنزيل" والمُطّلعُ على بقية آثاره يعثر دون عناء على مصادره من الحديث النبوي التي يعتمد عليها. و الملاحظ أن مجموعة من الكتب وأصحابها كانت تتصدر القائمة و أخرى لم تزد الإشارة إليها على مرة أو مرتين خلال تفسيره للقرآن الكريم. أما أكثرُ هذه المصادر التي كان كثيرا ما يعود إليها و يستقي منها فيما بدا لي فهي: صحيح البخاري و صحيح مسلم وسنن الترمذي و النسائي و موطأ مالك والسنن الكبرى للبيهقي...وهي في مجملها أصحُّ الكتبِ المتضمنةِ لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .و لا غرابةَ في أن تحتلَّ الأولويةَ في مصادره ذلك أنه التزم بضرورة الأخذ بما صحَّ من الأحاديث . أمّا منهجُهُ في ذلك فهو الرجوعُ إلى سائر المصادر

الأخرى من حيث ذكرُ المرجع و مؤلفه معا أو ذكر المرجع دون الإشارة إلى اسم مؤلفه أو الاكتفاء بالإشارة إلى صاحب المرجع فقط. و بذلك فإن الخضر حسين قد حافظ على سُنـــّة المفسرين في اعتماد الحديث النبوي لتفسير القرآن الكريم معتمدا على أهمّ الكتب في الحديث، و قد كان أمينا في نقله عن المحدثين رغم أنه يكتفي بالإشارة فقط إلى مصدر الحديث بصيغة تدل على درجة الحديث فقط . وفي بعض الأحيان يذكر الحديث بالمعنى دون المحافظة على الألفاظ التي ورد بها الحديث.

و لئن كان مُقَلـــّدًا في اعتماد الحديث للتفسير. فإن كتابه يخلو من الضعيف و الموضوع مختلبا الخوض في بعض الاختلافات الحاصلة حول رفض بعض الأحاديث .

و بذلك تظهر إضافة الخضرحسين في مجال الاعتماد على الحديث في أنه تجاوز سُنَّةَ القدامى من المفسرين في ذكر أسانيد الأحاديث و لم يُثقل قارئَ تفسيره بأسماء الرواة.

– ثالثا : مصادره في اللغة و النحو و الآداب:

ما تجب الإشارة إليه أن المصادر و المراجع التي اعتمد عليها في هذا المجال عديدة و متنوعة و ليس من قبيل المبالغة إذا قلنا أنها

تفوّقت على جميع المصادر التي اعتمد عليها في تفسيره رغم أنه نادرا ما يذكر المصدر أو صاحبه .

و من الملاحظ أنه لا يقتصر في استشهاده بآراء أغلب هؤلاء الأئمة على التأييد فقط بل كان يخالفهم الرأي أو يُفنّد ما أقرُّوه رغم أنه يُظهر نفسه بمثابة التلميذ المتعلم من شيخه والساعي إلى الاستفادة بمذاهبهم في النحو فهو غالبا ما يسعى لتقريب وجهات النظر و العمل على تقليص الهوّة و الاختلافات خاصة في فهمه لآيات الذكر الحكيم و من أكثر الأسماء التي تداولها في تفسيره " أسرار التنزيل" لـ ابن هشام (ت761هـ) في كتابه " مغني اللبيب" وعبد القاهر الجرجاني (ت 478هـ) في كتابيه " أسرار البلاغة " و"دلائل الإعجاز " و سيبويه في "الكتاب" ثم السكاكي (ت 1229م) والزجاج (ت923م) والكسائي (ت850م) .... وتتعدد الأسماءُ في مختلف الكتب. و كذلك تتالت أسماءُ عديدةٌ للعلماء الذين اهتموا بالقرآن من حيث دراسةُ معانيه و إعجازه البيانِ و اللغوي من أمثال الكسائي و الزمخشري وابن قيم الجوزية (ت751هـ) والفيروزبادي (ت 1415م) الذي يشير إليه دائما بصاحب القاموس.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و له مصادرُ في فنون أخرى متنوعةٌ مثل التراجم و السير والتاريخ و العلوم ...رأيتُ أن لا أذكرها إذ لو جمعتُ كل ما ذكر من مؤلفات و مصنفات لاستغرق مني ذلك حيزا كبيرا و لكن اختصرت على ذكر نماذج منها علّها توضّح منهجه في مساره الفكري و الثقافي و خاصة في تفسيره للقرآن الكريم .

– ثالثا : منهجه في تفسير القرآن الكريم:

يمكن استخلاص منهج الشيخ محمد الخضر حسين في التفسير من خلال تعريفه لعلم التفسير و تحديد موضوعه و أغراضه و هو يراه علما من أشرف الصناعات لأن موضوعَه كلامُ الله تعالى والغرضُ منه هو الاعتصامُ بالعُروة الوثقى مع أن الناس في حاجة شديدة إليه... "(38).

و هو في نظره ينبني على علوم كثيرة شرعية و لغوية من ذلك أنه يرى من شروط المفسر "أن يكون عارفا بعلوم اللغة العربية وفنون بلاغتها... "(39).

---

(38) محمد الخضر حسين "بلاغة القرآن " ص 23.
(39) ن م ص .

و قد تبيَّنَ الغرضَ من علم التفسير فحدَّدَ له أمرين أساسيين: فهمَ معاني القرآن المُـــمَكِّنَ من استخراج أحكامه والاستدلالَ به على صدق النبوة إذ يقول: " أُنزل القرآن لمقصدين ساميين : أولهما : هداية البشر إلى سبل السعادة في الحياتين الدنيا و الآخرة ، و ثانيهما : دلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما ادّعاه من الرسالة التي هي مطلعُ تلك الهداية العامة فكانَ أعظمَ معجزةٍ و أخلدَها على وجه الأرض "(40).

هذه أهمُّ الأغراض التي حرص على بيانها من خلال تفسيره و قد تعرَّض في مجمل آثاره و أثناء حديثه عن التفسير إلى أنواعه فذكر التفسيرَ بالمأثور و التفسير بالـــرأي و خصائصَ كلٍّ واحد منهما وبعضَ نقاط الضعف فيها مثل الإسرائيليات في التفسير بالمأثور أما التفسير بالرأي فقد جاءه النقص من ناحيتين، عدم الأخذ بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير من ناحية أو بعدم الموافقة لما تقتضيه قواعد اللغة أو بلاغتها من ناحية أخرى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

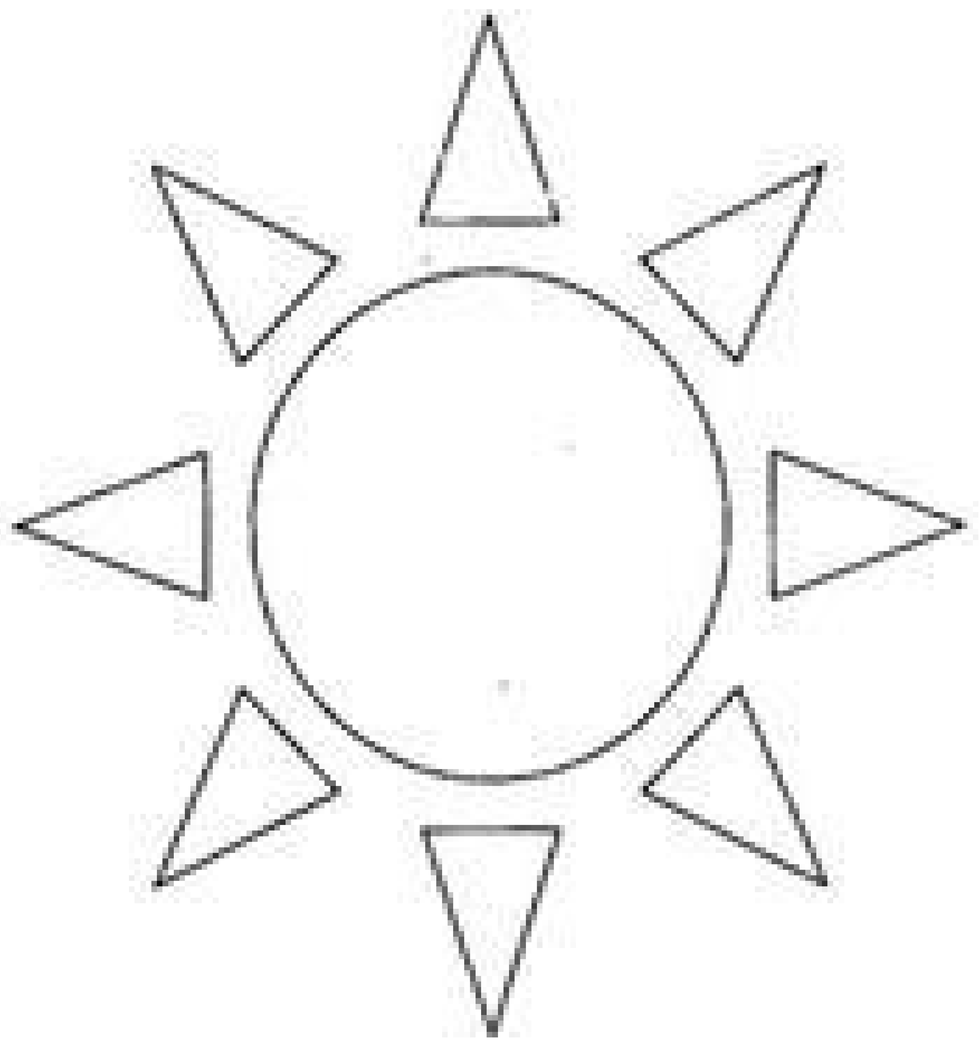
(40) محمد الخضر حسين "بلاغة القرآن" ص 26.

كما ذكرَ بعضَ أنواع التفسير التي اعتُبرت مخالفةً للحكم المقصود من التفسير بل خرج البعضُ منها عن الدين وأصوله وخالف أحكامَه و أهمُّها : التفسير الإشاري و التفسير الباطني.

أما المنهجُ الذي اتبعه في تفسيره للقرآن الكريم والوسائل التي اعتمدها لبيان ما فيه من أهداف سامية و أغراض و معانٍ جليلة فيقوم على أسس ثلاثة هي : **اللغة، المأثور والرأي.**

و لا يعني التّركيز على هذه الدّعائم أنّ مباحثه لم تستند إلا عليها و إنما هي ركائزُ بدتْ أكثرَ وضوحا و رأيتُ أنها الأجدرُ بالدراسة و التّحليل إضافة إلى تضمُّنها موضوعاتٍ مهمّةً على صلة وثيقة بموضوع عملنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



قراءة أولى في ديوان"عندما يصبح للوقت...رفاة-لعلي المرموري*

بقلم: محمد المحسن

القصيدة تكتب شاعرها"موريس بلانشو

"عندما يصبح للوقت...رفاة" إبحار في سراديب الذات، ومصباح في زجاجة من الأرق والألم، والقلق، والسؤال، إنّه ايغال في واقعنا الحاضر لا يملأه إلا الفضاء، وهو أيضا بحث عن دفء الرغبة في ظل سكون، وصمت، رهيبين يقلان صخب الرعشة والحلم.

تطلّ علينا هذا النفس المشظية والهادرة من عتبة هذا المجموع الشعري،وعتبته عنوانه، وعنوانه يؤجج الإحساس فينا بوجع صاحب يهجع خلف الشغاف.. إنّ صيغة عنوان هذه القراءة النقدية لنصوص هذه التجربة الشعرية، مستوحاة في جوهرها ممّا تتأسّس علي تلك النصوص الشعرية من مرجعيات كتابة وأسئلة متن ومستويات كلام تُسهم مجتمعة في تشكيل الكون الشعري وتحديد المفيد من سماته الفكرية وخصائصه الجمالية. فالذاكرة حاضرة بكثافة في تشكيل مُجمل نصوص هذا العمل الشعري..نصوصٌ تستعيد الذاكرة أفق خلاص من حرائق الراهن، ترتحل عبرها إلى زمن ماض يبدو أرحم وأرحب..هي ذاكرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرد:الذات الشاعر، وهي ذاكرة جمع: مجتمعة، وهي ذاكرة الإنسان: الإنسانية... فالشعر خطاب يتجاوز حدود الذات الضيّقة، ليعبّر عن هموم الجماعة قبل أن يصوغ أوجاع الإنسان في المطلق.. ويبقى الشعر رسما بالحروف والكلمات.. ينفتح على الرسم التشكيلي فيستعير بعض ألوانه وأشكاله ورؤاه الجمالية تشكيلا بصريا للكتابة الشعرية علىْ بياض ورقة الكتابة.. بعد أن تداعت الحدود بين الفنون فتداخلت التخوم..

يتشاءب الوقت(الزمن) ويتململ كي ينبجس من –رفاته– في شكل فضاءات دالّة على ما يشكل هذا العمل الشعري من عوالم إبداع..

يتقاطع فيها وَجدُ العشق بوجَع الحصار..

تتعدد المداخل إلى النص الشعري المعاصر وتتنوع، بحكم أنّه يبقى قابلا لأكثر من صورة تأويل، ومنفتحا على أكثر من شكل احتمال للمُمكن والتوقع للكامن. فمدار الإبداع عامة والشعر منه خاصة، بحث يسكنه الارتحال إلى المجهول من الآفاق، والقصي من جماليات الكتابة ودلالات الفكر.. توقا لتحقيق المغايرة للسائد الشعري..

وتبدو ملامسة تخوم الكون الشعري الذي تنحته نصوص هذه المجموعة مدعاة للتأمّل عبر عنوانها: عندما يصبح للوقت.. رفاة، باعتبار أنّ مثل هذا العنوان قد يختزل مُحمل العلامات الدالة على أسئلة متنه الشعري وجماليات صياغتها.فالعنوان، رغم ما يشي به–

بعده المجازي–، إلاّ أنّه يُضمر كتابة دلالية تجعل منه أحد المفاتيح الأساس لفتح مغالق النّص الشعري، والكشف عمّا تبطنه من دلائل لا تخلو من علامات غموض وتعتيم،وتتوسّل به من أدوات كتابة سحرية، تبقى دوما متغيرة، ومتحوّلة من تجربة إلى أخرى، وحتى من نص إلى آخر داخل التجربة الشعرية الواحدة.. فجوهر الإبداع تجاوز ينبغي دوما أن يدرك المدى الذي لا يُدرك، للكائن من الأشكال، والراهن من أسئلة الشعر..

أما المتن الشعري الذي ترسم معالمه نصوص هذا العمل الإبداعي وتحدّد المفيد من سماته الفكرية والجمالية في آن، فإنّه يقوم على تيمتين أساسيتين تشكّلان محوري القول الشعري، وهما العشق والاغتراب، محوران يتنوّع حضورهما داخل المكوّن الشعري، إذ تأخذ علاقتهما أشكال التوازي أو التحاور أو التقاطع. وقد وزّع الشاعر –ببراعة واقتدار– قصائده بينهما.

فثنائية العشق والاغتراب هي التي تؤثث العالم الشعري وتمنحه أبعاده الدرامية، ذاتا وموضوعا، إذ يرسم العشق حالات الذات الشاعرة المتشظية وجدانا بسبب تداعيات الزمن المؤلمة، ومن هنا،فالعشق استحالة وخسران ينجم عنهما اغتراب وجودي يفضي بدوره إلى الرحيل صوب الأقاصي، أو الانعطاف إلى الذاكرة سبيل خلاص من عقال الراهن، ويكون الرحيل إلى رحاب الحلم ملاذا

وخلاصا من عذابات الواقع وانكساراته، مما يحوّل حياة الشاعر إلى وحلم وذكريات لطاف تؤمل ولا تستعاد، فالمناجاة والذاكرة والحلم، تمثل المرايا التي تنعكس عليها الحالات -النفسية- للشاعر: مدينة الحلم الذي بقي يراودنا، وما ارتحل، هنا الأحوال باقية والطرق.. والنوى الذي فارق من زمن.. (ص41)/تمحي وجه حبيبتي.. رسغ الصبح وتصدمني...؟ الذكرى... (ص75). فعبر المناجاة يتحوّل الخطاب الشعري إلى نوع من البوح، ومن خلال الذاكرة يحقّق اختراقه لتخوم الزمان والمكان، وبواسطة الحلم يتحوّل الواقع المترجرج إلى أمان مشتهاة تحدّد كيان الشاعر وتُبقي على حالات وجد نابضة.. وهو الوجد الذي يستمدّ منه لُمعة الحضور.. وتستمدّ صورة الأنثى في المقدّمة -العشقية- بلاغة حضورها من غيابها. فهي الغائبة -الحاضرة أو الحاضرة- الغائبة بامتياز، بلاغة التجلي في التخفي أو التخفي في التجلي.. فهي أنثى الشعر أكثر منها أنثى الواقع، أنثى الحلم أكثر منها أنثى الحقيقة،أنثى الماء أكثر منها أنثى الطين،أنثى الوله أكثر منها أنثى الامتلاء،أنثى الأمنية المهدورة لا الأمل المبقى.. يوغل الشاعر في استحضار طيفها إلى المدى الذي تتداخل تخوم المكان وحدود الزمان، وكل عناصر الوجود المتقابلة: الليل والنهار، الدياجير والضياء، الخصب والجدب، السقيع والقيظ، الحضور والغياب.. وهي ثنائيات

المتقابلة التي تسهم مجتمعة في تعميق جراح الشاعر/المحب، والكشف عن خباياها الهاجعة في كيانه.. وهي كذلك صور التشظي وقد تحوّلت إلى-غيب-شعري يحرق ، ويتعالى النداء ولا رجع لصداه..

كلّ هذا يفسّر حالات الشكوى والأسى والاغتراب التي تلوّن المناخات الشعرية لهذه الإنجاز الإبداعي المتميّز: **تعبت إلاهي كثيرا وماعاد الوطن..يغري شهوة أنثى الرّيح.. فعجبا منك أيّها البعيد.. الحائر.. الهرم.. كم بكينا لأجلك** (ص53)..

رمزية المكان:

إذا كان الاهتمام بالمكان ظاهرة شعرية عامة، ومتجذرة في الكتابة الشعرية العالمية، فإنّ "عندما يصبح للوقت..رفاة "لا يخرج عن هذا السنخ، فيتخذ الشاعر من المكان ذريعة جمالية للإفصاح عن صدق روابطه به، وعن ذاك الميثاق المتين الذي عقده مع فضاءات مكانية بعينها.

إنّ جولة عابرة في نصوص الديوان تقف بنا عند محطات مكانية مختلفة منها الداخلي كالجنوب ورماله-الشريدة- "باب الزاوية"، و"برطال الدراويلّ و"الجهة الفوقية"..ومنها الخارجي كبغداد، وتل الزعتر.. ولكل سياق مكاني خصوصيته الجمالية والثقافية والحضارية والرمزية التي تبعث الذاكرة، وتنفض غبار السنين عن عبق التاريخ المحلي والعربي المعفر بدلالات الشموخ والعزة وبدلالات النكبات

والهزائم والحصار..إنّ المكان يضحى بديلا أو معادلا للذاكرة المفتقدة،كما يؤول حصنا تحتمي به الذات الشاعرة، وتلوذ به من عوائد الزمان وقهره.

ثم يتلاقح المكان والزمان في —نصوص المجموعة– بالتحول الشعري من مكان إلى مكان انسجاما مع اللحظة الشعرية، وهو في الحقيقة تحوّل في الزمن، وبصمة تدل على تنوع التجربة الإنسانية وثرائها..

جمالية البنية الصوتية:

من الجدير —في هذه القراءة المتعجلة– أن نتبيّن معالم البنية الصوتية للتشكيل اللغوي في هذا الخطاب في محاولة لربط هذه المعالم بما لها من دور في إنجاز التجربة، وفي تحقيق قدرتها التأثيرية، فالملامح الصوتية التي تحدّد الشعر قادرة على بناء طبقة جمالية مستقلة(**1**)، والبنية الصوتية للشعر ليست بنية تزينية، تضيف بعضا من الإيقاع، أو الوزن إلى الخطاب النثري ليتشكّل من هذا الخليط قصيدة من الشعر، بل هي بنية مضادة لمفهوم البناء الصوتي في الخطاب النثري، تنفر منه، وتبتعد عنه بمقدار تباعد غايات كل منهما، وهذا يعني أنّ ارتباط الشعر بالموسيقى ارتباط تلاحمي عضوي موظّف، فبالأصوات يستطيع الشاعر أن يبدع جوّا موسيقيا خاصا يشيع دلالة معينة، واللافت أنّ هذه الآلية الصوتية غدت في نظر النقاد مرتكزا من مرتكزات الخطاب في الشعر العربي الحديث، وهذا

المرتكز يقوم على معنى القصيدة الذي غالبا ما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر ما يثيره بناء الكلمات كمعان(2).

وإذا كان الأمر كذلك فليس بوسع الدارس أن يتجاهل ظاهرة أسلوبية لافتة ساهمت في إنجاز جمالية التجربة عند علي المرموري كما ساهمت في تحديد معالم رؤاه وهذه الظاهرة هي تعويله على المدود أو الصوائت الطوال، وهو ما يلمسه المرء في الخطاب الشعري على مستوى المفردة، وعلى مستوى التركيب،إذ تتجلى هذه الظاهرة الصوتية في هيمنة مفردات حافلات بالمدود الطوال على هذا الخطاب، وذلك من قبيل: رشيد- وحيد- شريد- قصيد- بعيد- سبيل- رحيل- نخيل- طويل- شهيق- رحيق- رئيف- رغيف- نحواء- حياء- مساء- ميناء- ندى- رؤى- مدى- نوى- شذى- هوى- ثرى- رقيب- وجيب- رنين- حنين- طين- سنين- عجول- خجول..

والجدير بالذكر أنّ غير قليل من هذه المفردات المصوّتة كرره الشاعر غير مرة في تجربته هذه مما يعني أنّها ظاهرة أسلوبية صوتية محروص عليها، وموظفة في خطاب هذا الشاعر، وكثيرا ما تهيمن هذه الظاهرة عل بعض المقاطع بوضوح، ومن هذا القبيل قول الشاعر:

-ـما تستيقظ القصيدة

في صباحاتك أيّها الجنوب

كل شيء يجري بعيدا، وأنا هنا.. ليس بعيدا

... هنالك عند المساء.. رفيقان

أحدهما أنا.. وثانيهما رمالك الشريدة.

ومن هنا، يبدو واضحا أنّ التعويل على الصوائت الطوال ظاهرة أسلوبية صبغت الخطاب الشعري عند علي المرموري الذي حمّل هذه الصوائت عميق أحاسيسه وانفعالاته مما يجعل خطابه في كثير من الأحيان قائما على ما يسميه جان كوهن بالكلمة الصرخة، ويذكر أنّ العلاقة وثيقة بين الصُراخ والشعر، فالصراخ حالة هيولية من حالات الشعر، وفي ذلك يقول جان كوهن: "الشعر يتميّز عن الصّراخ، لأنّ الصراخ يستخدم جسدنا على النحو الذي أعطتنا إيّاه الطبيعة، أما القصيدة فتستخدم اللغة،إنّ الشعر يستخدم المسند الذي تستخدمه اللغة غير الشعرية، إنّه يقول كما تقول: إنّ الأشياء كبيرة أو صغيرة... حارة أو باردة لكنّه يصنع من كلّ واحد من هذه الألفاظ الكلمة الصرخة، إنّ الشعر ذو جوهر تعجبي"(3)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على سبيل الخاتمة:

قد لا أبالغ إذا قلت أنّي لست من الذين يتناولون المجاميع بأنامل الرّحمة ويفتحون أقلامهم أبواقا لمناصرة كلّ من ادّعى كتابة الشعر، إلاّ أنّي وجدت نفسي في تناغم خلاّق مع هذا الخطاب الشعري

الذي فيه كثير من التعبيرية وقليل من المباشرة والتجريد يغري متلقيه بجسور التواصل معه، مما يشجع على المزيد من التفاعل، ومعاودة القراءة والقول، فكان ما كان في هذه الصفحات من مقاربة سعت إلى الكشف عن بعض جماليات هذا الخطاب مربوطة بالبنية اللغوية التي عبّرت عنها، كما سعت إلى تلمُّس معالم الرؤيا في هذا الخطاب الذي تراءت معالم رؤياه غربة فكرية تعاني وتعاين وتحلم، ولكنّها لا تهرب، بل تواجه بغير قليل من الصمود، وبغير قليل من المعاناة تماهيا مع وجدان تعتمل في داخله الأحاسيس وتحتدم المشاعر..

الهوامش:

*"عندما يصبح للوقت..رفاة:مجموعة شعرية من الحجم المتوسط ،عدد صفحاتها:88 صادرة عن الشركة العالمية للطباعة/سوسة،تحمل إمضاء الشاعر علي المرموري.

1-اللغة العليا ص:116جون كوين.ترجمة أحمد درويش.ط2 القاهرة 2000

2-البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ص:38-ط-الإسكندرية 1990

3-اللغة العليا-ذُكر سابقا-ص:74.

تنويه:الأستاذ علي المرموري:مندوب جهوي للثقافة والمحافظة على التراث بولاية القيروان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إهـــــــداء

شعر: حسام السعيدي

المعهد العالي للفنون والحرف بصليانة
صديرا وأعوانا وطلبة

يـــــا معـــهـــــدا للفـــــنّ والفـــنّـــان

وحرفا تسمـــــو بمـــــنّ معانـــــي

طلبـــــة أنـــــار العـــلـــم وجوههـــم

أعمالهم مـــن زخـــــرف الألـــــوان

هنيئا لكـــــم فـــي دربكـــم مجـــــدا

مجـــدا تليدا من سالـــف الأزمـــــان

تاريخ حضارة في الفـــــنّ شعّ بريقـــــها

من عهـــد فينيقا، بيزنطا والرّومـــــان

وصناعة تـــرقى البـــلاد بصيـــــتهـــا

هلمّـــوا بجدّ للمـــــجـــد دون تـــوان

لا تدّخر جهـــدا أخي فـــي ســـــعيك

إنّ النّضال مـــــن شيـــم الفرســـــان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أَجْمَلَ الأُمْنِيَاتِ!

شعر: محمد الهادي بوقرة

عَلَى شُرُفَاتِ السِّنِينِ الجَدِيدَةْ
تَجِيئُكِ كُلُّ الفَرَاشَاتْ ..
وَتَأْتِيكِ كُلُّ الحَسَاسِينِ مِنْ شَجَرٍ فِي القَصِيدَةْ ..
وَيَمْتَدُّ قَوْسُ قُزَحْ
حُبُورًا مِنَ اللَّوْنِ وَالرِّيشِ وَالضَّحِكَاتْ
إِلَى جَنَّةٍ مِنْ مُنًى وَفَرَحْ
فَتُشْرِعُ فِي نَفْسَاتِكِ أَبْوَابَهَا
وَتَسْكُبُ فِي خُطُوَاتِكِ أَطْيَابَهَا
وَتَرْفَعُ أَحْلَى قَدَحْ
عَلَى نَخْبِ عَيْنَيْكِ إِذْ تُشْرِقَانِ
بِكُلِّ الأَغَانِي السَّعِيدَةْ ،
وَنَخْبُ الزَّمَانِ يَجِيءُ بِمَا تَشْتَهِينَ
مِنَ الأُمْنِيَاتِ البَعِيدَةْ ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قمر يترقّب أغنيتي

شعر: عمر سبيكة

إلى سعيدة دائما

قريبا من الطّفل أهو،
أطلّ على الأرض
من شرفة تتدلّى من القلب،
من آهة تتأوّد في آهة العرب،
من سند يعتلي سند الحزن،
ومن غيمة تحتسي شامخ الدّمن،
أطلّ على الأرض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من ثقب بالجدار،
قريبا من الطّفل أهو،
أطلّ على وطن يترقّب في نظراتك
أعلى من القصف،
أعلى من الخوف
في نظرات القفار،

قريبا من اللّه أهو،

أطلّ على الطّفل يلهو
على حافّة الموت في وضح الطّلقات،
أطلّ على وطن يترجّل ساح الظّلام،
أطلّ على وثن يترجّل ساح الكلام،
أطلّ على الطّفل يلهو
على حافّة القصف.

تنتفض الحاء،
تنتفض الرّاء في جسدي.
قريبا من اللّه أهوي،
أطلّ على طفلة تترجّل ساح القنابل،
تحضن دميتها و تموت،
أطلّ على امرأة تترجّل ليل القبائل،
تحضن أشلائها و تموت...

قريبا من الطّفل ألهو،
أطلّ على قلمي يترجّل ساح الرّماد،
ليبحث عنّي و عنك،
و تبحث جينين،
تبحث بغداد،

تبحث بيروت عن دمية تتدرّج

في شارع يتحوّل في دمها،

تقطف الورد من عطرها،

من عناد حدائقها،

و تنهض قانا من النّظرات،

من الخطب،

و من تربة تترشّف صيحتها،

قريبا من اللّه أهوى،

أطلّ على قمر يترقّب في نظراتك

أعلى من القصف،

أعلى من الخوف،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمشي إليك،

إلى قمر غائم في سماء المشاعل،

أمشي

إلى قمر يترقّب في نظراتك،

أمشي

إلى قمر يترقّب في نظراتي.

مدائن في الذاكرة

شعر: عبد القادر الغربي

هي الأقـــدار حملتنـــا ابتلاءا

إلى المـــحتوم كـــرها والمصائر

فنحتتها بدفء الوحد ضوءا

ونـــرعـــاها حنـــوا كالسرائر

كـــذا يمست شوقـــا "قيروانا"

شذى التـــاريخ يعبق بالبـــشائر

فكان "العقبة" في القلب وفيه

وكان "زمعة" بقبض الضمـــائر

ومن فتح جلـــيل لا يضاهى

إلى مهـــد الخضوبـــة والبيـــادر

"بياحة" زادها الإنتاج حسنا

فبوأتهـــا المنـــازل والمفـــاخـــر

وإن نسيت فلا أنسى جميلا

تحـــدث فيـــ ولائـــد كـــالمنائر

تشد إذا دعا قلبي حنيني عمري

أصائل في الثبات وفي البصائـــر

ولا تعجب رفيق الدرب منـــي

إذا جنحـــت خفقـــا مثـــل طائر

"لبترت" الملاحـــم والجـــلاء

وعنـــوان التـــصدي والختـــاجر

تحدت الأعادي فـــي شمـــوخ

فأحـــرقت الكتائـــب والعواهـــر

إلى "أكتوبر" الأحـــرار هـــاك

تحيـــات المحبـــة والمـــآثـــر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن كبرى المدائن لا تسلي

"عـــروس" جنوبها نجم الحضائـــر

تبنت بامتياز فيـــض خـــلق

وأعلت شأن تـــونس والحواضر

ترى الصناع من حـــذق وفن

وفكـــر في احتفـــال كـــالمهائر

وإتعس خاض العقل فـــردا

كأن لـــها وشائـــج بالسواحـــر

ويـــأتي الحب إلا أن يشـــيد

بخلد كفاح أحـــرار الجـــزائر

هنالك كان للأبطـــال عـــهد

بسحق مكابـــر جم العســـاكر

وتلقـــين العـــدو دروس دود

عن الشرف المقدس كالشعائر

لقـــد ودعت فيها خيـــر ناس

معادن مـــن نفائس و الخرائر

ومن شم الجبال وطئت ارضا

يعز فراقهـــا حبلى الدخائـــر

تكايـــد في إبـــاء و اقتـــدار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعن حق تجلجل في المنابـــر

سلامي يـــا "طرابلس" المنيعة

عرين الأسد ملهبة المشاعـــر

أقمنا فـــي الربوع سنين كدح

فكنت لنا التحـــاب والتشاور

لعمري مـــا حيـــنا صـــدق

نقاســـم إخوة حـــسن التحاور

عروس الشرق ...

شعر: الذهبي بلقاسم

بغداد لا تبكي

إن مرّت بك الدنيا

وتركتك ركاما

بغداد لا تبكي

إن تسيت المدن من حواليك

ARCHIVE
ملامحها
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضحّت بنحيب الثكالى

وبكاء الأيتام

بغداد لا تبكي

إن نفخوا في وجهك ألما

وقالوا أتينا ... محرّرين

وبدل اليوم أقاموا أعواما

يا قمري اليوم زفافك

فتجمّلي لتنامي في الأحلام

ستضيء أدغالك يوما

وتتجلّى الفوضى

وتتقشّع الازدحام

وسيرحل المغتصبون

بقوافل الخرجى

وتوابيت الموتى

وآليّات حطام ...

أبدا التّاريخ لا يؤرّخ نفسه

حين يتقاتل الإخوة

تستحي من التاريخ الأقلام.

مطر لسماء التجلّي.

شعر: صالح الطرابلسي

يا غامضا في تجلّيك!

كيف لي أن أفتح في "صدئك"

المغاليق؟!

كي أراني جليّا!؟

كيف لي...

أن ألثّث جسدي مؤجّج الجمر

كي أمدّه

في مداك "ألفا" مديدا خصيبا؟!

وأعيدُني

سادر الرّوح إنسانا سويّا!

✣ ✣ ✣

أيّتها الصّباحات القادمةُ

من سجوف تتجلبب في حريق

السّؤال،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسبلي الجناحين نمتطيهما

للرّحيل في أفق التجلّي.

✣ ✣ ✣

يا حاديَ الرّاح عنّقها

جيّدا

ثمّ أعتقها: "لأمّا"،،،

تنهى عن ارتكاب ما يخرّبها...

و"لأمّا"

تنصب الحاضر جسرا لغدٍ...

يعانق الشّمس..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و"لاما" أخرى

تستشرف الآتي

كي تؤكّده غاية، لا بدّ الفعل

يدركها!...

✣ ✣ ✣

الحاء حصني بلا أسوار...

والحصان الّذي أمتطيه براقا!...

لأمتشق لوحي وقرطاسي، وأزرعني

في تلافيف أرهى تعاليم

للهوى والشّباب!!

إنّي العاشق الوله، والرّوح جفاف،

كلّما

أسقيتها

من خمرك ظمئت

يا حادي الرّاح

عُبَّ لي من سلافتها،

حتّى انفلاق الصّباح

إنّ في شربها،

علقم البلوى، بلّى!...

لكنّها

حينَ انتشاء الرّوح بها

عسل منقّى...

من لظى الورد ومن شظيّات

الأقاحي!

* * *

ضيّقًا

كان بيتنا!..

يحتوينا حضنًا صغيرا

قد بنيناه...

من هشيم فصول عجاف،

ومن طينة من ماء

لم تلوّثه الطّحالب...

ثلّة كنّا من العصافير

بلا زغب،

تزقّنا الأمّ ممّا تنبت الأرض،

وممّا يحتويه الصّدر من درّ

حنان...

يضوع بالدّفء.

* * *

كبُرنا...

وشبّ عن الطّوق حلمنا...

فإذا الهوى،

وا عجبي... يسطو على الهوى

شرسا...

وسنابل الرّوح،

قد غادرت بيادر الجسد.!.

* * *

قاحل جسدي،

حسرتي، كيف أستعيد

ما أتلفته زوابع الرّمل

من واحة خضراء؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كيف أعيد إلى قامتي

سُموخ النّخيل الباسق،

وخيول العشق نامت على

برد مصالحها،

فاستكان صهيلها إلى زمن:

يغتال عشبة الرّوح فينا.

* * *

جسدي...

بالجسد المثخن

بجراح الرّغبة،

كيف لي أن أجعل،

منْ جحيم مرارتك

حدائق ورد.

كيف لي أن أحمل،

موتي من الوريد

إلى الوريد...

أقطف من كرمة في الحياة

عناقيد خمر معتّقة،

لأسكبها بسمة

على شفاه طفل يُعيد

سكناه فيّ، فأنطلق

كالنّسيم طليقا

حين يهبّ على الدّنيا،

يخرّ لها اللّيل مطعونا بأنوار

أنجمه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويسجد القمر،

وطيور البراري تغنّي

على وقع آهاته،

وبها جرحها،

فيرقص الشّجر

* * *

يا التي قد شكّلتني،

جسدا قد انصهر

في وهج تربتها،

سأظلّ أقايض لانظر

الجحود،

حبوب براءتي،

لأثرها،

خبز امتداد سنوالك الخضر

وأظلّ أعدو بين روابيك جدول

رقّة

لا يخشى في عدوته أن يجفا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صوتُ الحرير

وأظلّ البلبل الغرّيد:

أوقّع

من ضوع حسنك الدفّاق،

أحلى أناشيدي

أوزّعها

على أهلي الطيّبين،

هديّة لأحلى المواعيد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحباء المجلة، يمكنكم تجديد اشتراككم السنوي في مجلة الإتحاف عبر إرسال حوالة بريدية على العنوان التالي: مجلة الإتحاف ص.ب 45 سليانة 6100 أو تحويل المبلغ مباشرة بالحساب الجاري للمجلة وتجدونه في الصفحة الثانية.

امرأة.. على مقام القبانيات

شعر: حنان الوحيشي

حين قرأت القبانيات

في القراءة الأولى

شعرت أنّني كلّ النساء

في القراءة الثانية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعرت أني أسطولا

يحتوي كل النساء

في القراءة الثالثة

شعرت أني الوطن

والمعمّرة حوّاء

أمـــــي

شعر: سندس عمار

إلى القلب الذي ينبض

في كل لحظة..

بالحب، بالرحمة وبأحلى الحنان

إلى من أنارت قلوبنا

وكتبت بدمائها أسمائنا

إلى من قاسمتنا أفراحنا وآلامنا

إلى من أفنت عمرها

لإسعادنا..

وبذلت جهدها لإرضائنا

إلى مهجة الروح

وبهجة الحياة

إلى الحبيبة أمي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مـــــــدٌّ وجـــــزْر

قصة: محمد جوعو

ها هو البحرُ

يَنْحَسِرُ الآن

ها هو الرّملُ

يَنْتَصِرُ الآنْ

ها هو الجُرْمُ يَنْفَجِرُ الآن...

ينفجرُ الآن ...

من ديوان :الزّهر و النّار

للشاعر المغربي ناجي علّوش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للبحر مَدُّهُ وجَزْرُهُ..وللسّماءِ القريبةِ،البعيدةِ زُرْقَتُهَا وعُمْقُهَا وهذا أيضا ثقبُهَا يرسل خِفْيَةً على رؤوس المَلإِ أشعّة فيها نواقيس إنذار!..وهو واقفٌ،متعبٌ،يائسٌ!...والنّاسُ..النّاسُ يمرحُون،في غيْرِ اكْتِرَاثٍ يعبثون..يَصْطَلُونَ تحت شمْسٍ أوسُّو وبسياطِهَا الّتي تُلْهب أجسادهم يتلذّذون... وجهه بُرْقُعُ حِدَادٍ..عيناه بحر من الحزن،عليهما غشاوة بيضاء كالأكفان..هواجس تملأ رأسه وأضياف أشباح وأنين وعويل..عرق بارد يتصبّب من جبينه..مرارة في فمه ويْبس وجفاف في حلقه وهو واقف مخطوف النّظر..شارد الذّهن..ضائع وسط الزّحام.. ينظر ولا يرى..يسمع ولا

ينصت..سيحارته تفنى بين إصبعيه..والنّاس من حوله منغمسون في أمورهم الخاصّة جدًا،لا أحد يعيره اهتمامًا،لا أحد يلتفت إليه ويتفطّن إلى ما هو عليه من تيهٍ ويأس وضياع!...

موسيقى مَايْكِلْ جاكْسُونْ تملأ شاطئ ضاحية حمّام الأنف..ومن ورائه جبل بوقرنين يقف شامخا،شاهدًا على كلّ ما يحدث والشّاطئ يعجّ بالخلق والصّخب والضّجيج!...

طفلٌ عارٍ يتبوّل في زبد البحر وأمّه تناديه،تلحُّ على بقائه قربها تحت المظلّة في الظلّ وتحثه على الابتعاد عن أشعّة الشّمس المسمومة..طفل ثانٍ يمرح..يعبث بالرّمال..يبني قصورًا.ويهدم قصورًا..يضحك ملء شدقيْهِ وبراءة الأطفال تشعّ من مُقْلتيه وأمّه تتبرّد هناك في البحر،تدفق الماء على وجهها ويديها فيتسرّب باردًا منعشا نحو صدرها المترهّل وثنايا بطنها...

صبيّانٌ وصبايا يغوصون بأقدامهم في الماء والرّمل،ظهورهم محنيّة،أيديهم تلقلق الماء وبأصابعهم يجسّون الحجّار القابع تحت الرّمال،يلتقطون ما تيسّر منه،يلقونه في أكياس بلاستيكيّة سوداء وضعوها حول رقابهم ورجل مفتول العضلات يراقبهم من بعيد!...

فتيانٌ وفتياتٌ في ربيع العمر يلعبون الكرة،يقفزون ويضحكون،لا شيء في البال يلهيهم..عن اللّحظة الّتي هم فيها يمرحون...أكتاف وظهور وصدور مصهودة بلهيب الشّمس،برنزيّة اللّون،ممدّدة على الرّمال،عطشى والماء قريب..حُصُرٌ ومناشف بألوان

قوس قزح وقِفَافٌ وبَرَّادَاتٌ ومَدّاداتٌ تحت المظلاّت هنا..وخلق كثير في البحر هناك...عجوز تدبّ على عكّاز عتيق معقوف،تتّجه نحو الماء وقطّ أسود يراقبها من بعيد،في عينيه خوف شديد...صيّاد بائس،قابع قرب قارب محطّم،يحدق بعينيه إلى البحر ويبكي!...

ريحٌ سموم تقذف صدره ووجهه برمل داكن اللّون،ممزوج ببقايا أصداف ميّتة وصدره ينقبض وقلبه يتفطّر ألمًا وحزنًا والجرح داخله يترف ولا ضمائد لديْهِ يُضمّد بها الجرح ويوقف النّزيف!...

كتاب قديم تعبث به يده اليسرى..يده الأخرى تعبث بالسّيجارة والسّيجارة تفنى بين إصبعيه!...

منذ عام،جلس على هذه الرّمال وكانت دافئة،ناعمة كالحرير،برّاقة كالعسجد...

منذ عام،جلس وهو يبتسم للأفق الأرجُوَانيّ البعيد القريب...

منذ عام،وضع خلف أذنه مشموم فلّ وأحاط جيدها بعقد من الياسمين...

منذ عام،داعبت يده أناملها النّاعمة المخضّبة بالحنّاء..حدّثها عن آماله وأحلامه..عن حاضره وماضيه..حدّثها شِعرًا ونثرًا..عانقها وامتصّ الرّحيق من شفتيها...

منذ عام،همست والأفق في مقلتيها أنّها تحلم بطفل تكون عيناه كالبحر زرقة وعمقا وقال أنّه سيغذّيه عِلْمًا ويسقيه شِعْرًا ويصنع له من الفُلّ والياسمين ثوبا...وتبسّمت وتبسّم..ومشيا طويلاً على الرّمال والدّفءُ

يغمر قلبيهما والنّسيم يداعب وجهيهما والشّمس في قلب السّماء تضحك وصيّاد مرح،يتدفّق نشاطا،يخيط شباكا جديدة لقاربه الجديد ويغنّي ومعه صدى الموج يردّد:

يا عروس البحر ❁❁ يا حلم الخيال

...ومنذ أيام،هالك على مقعد في رواق طويل أبيض متوتّر الأعصاب،ينتظر والقلق غشاوة سوداء في عينيه وجرح في صدره بدأ يتآكل...دخان سجائره يملأ الرّواق..أشباح بيضاء تتراقص أمامه،تختفي ثمّ تظهر،تدخل من باب لتخرج من آخر،تمشي على أطراف أصابعها كأنّها على الجليد تتزلّج...صوت حبيبته يأتيه من وراء أحد الأبواب المُستَنسَخة،البيضاء يستغيث..يختفي تارة وتارة يمزّق فضاء الرّواق تمزيقا...ممرّضة عجوز على وجهها غضون وتعاسة تأتيه من حين لآخر ليقول له صوتها الأجشّ أنّ التّشخيص ممتاز وأنّ الأعمار بيد الله وحده وأنّ الأطبّاء يبذلون كلّ ما في وسعهم لإنقاذها وإنقاذ الجنين في بطنها!...

إزْدَادَ تشنّجا وتوتّرا..ألقى بعنقه على ظهر المقعد وأغمض عينيه واستنجد ببعض سور القرآن يتلوها في صمت...

أعاده صوتها المستغيث إلى متاهات روائح الأدوية والضّمائد والإبر والدّماء،يقتحم الباب الّذي يفصله عنها..يمزّق الصّمت الّذي ساد الرّواق هنيهة...أحسّ بقلبه يتدحرج في جوفه..إستوى واقفا مذعورا يرتجف كطفل لا يصدّق أنّ عصفوره الصّغير الّذي انقضّ عليه قطّ

أسود يمكن أن يصمت شدوه إلى الأبد...وضع يده على الجهة اليسرى من صدره وفي محاولة فاشلة لإنقاذ عصفوره،تشبّث بتلابيب بقايا أمل كضوء قنديل ذبلت شعلته ونفد زيته..ثمّ راح يمزّع الرّواق الطّويل،الأبيض،البارد حينة وذهابا...

...اللّيل ثقيل..ثقيل والزّمن استرخى على أحد المقاعد وتدثّر بسحب الدّخان الكثيف..وهو يدخّن..يطفئ سيجارة ليشعل أخرى،والقلق يبدّد أفكاره والجرح في صدره يزف وخلف الباب حبيبته تستغيث!...

حاول بكلّ ما تبقّى له من جهد أن يطرد الأشباح ويعيد تلاوة بعض السّور القصار...مرّ من أمامه شبح أبيض يسرع في اتّجاه أحد الأبواب يصيح،يطلب دما لمريضة في غرفة العمليات تزف!...ارتجفت مفاصله..كاد يغمى عليه..هناك من حديد على المقعد البلاستيكيّ البارد..تفرّس في عيني الشّبح،يستشفّ الأخبار،لكنّ العينين كانتا من حجر وزجاج كعيني تمثال من الشّمع في مُتْحَفٍ مُوحِشٍ لا تُنْبِئانِ بشيءٍ يُطَمْئِنُ!...

فجأة،دقّت السّاعة الصّفر..فُتِحَ أحد أبواب الرّواق المُسْتَنْسَخَةِ البيضاء،ومن ورائه أطلّ شبح على عينيه نظّارة أنْفِيّة،يرتدي ثوبا أخضر اللّون،طويلا..سأله والفزع في عينيه وقلبه في جوفه يسقط :- ماذا وراءك يا دكتور ؟!...

أشار الطّبيب إلى الممرّضة العجوز فاقتربت...وهو يجفّف بمنديل رماديّ عرقا تصبّب من جبينه،بثّ في أذنها كلاما أظهرت ملامح وجهه ذي التّجاعيد خطورته،فاختفت العجوز دون أن يُحْدِثَ اختفاؤها وراء الباب صوتا..نزع الطّبيب نظّارته الأنفيّة..مسح ما علق بزجاجها من ملح وعرق...ثمّ بعد لحظات خالها الدّهر طولا ربّت على كتفه وغمغم:

– على مراد الله!...

– **ما..ماتت!...**

– **البركة فيك!...**

من شدّة الفزع كاد يخرج من عقله..دارت الدّنيا من حَوْلِهِ..طافت عيناه عبر الرّواق الأبيض،البارد،الموحش..امتلأ فمه علقما..غصّ حلقه..ارتعشت شفته السّفلى..تشبّث بثلابيب الطّبيب وألقى برأسه على كتفه وكالثكْلَى انتابته نوبة من نواح وعويل!...

...عَرَقٌ غَزِيرٌ، بارد يتصبّب من جبينه وأشعّة شمس أوسُو سياط تلهب أمّ رأسه وفي رأسه أطياف أشباح بيضاء وأنين وصراخ وعويل...الجرح في صدره اشتدّ نزيفه وهو واقف مخطوف النّظر..شارد الذّهن..ضائع وسط الزّحام..ينظر . ولا يرى..يسمع ولا ينصت..السّيجارة ماتت بين إصبعيه والنّاس من حوله منغمسون في أمورهم الخاصّة جدّا،لا أحد يعيره اهتماما،لا أحد يلتفت إليه ويتفطّن إلى ما هو فيه من تِيهٍ ويَأسٍ وضياع!...

الصيّاد أشعل النّار في القارب المحطّم..النّار تتأجّج،تفترس الخشب والشّباك..والصيّادُ يرقص حول النّار ويقهقه،يقهقه،يقهقه ودموع غزيرة تنهمر من عينيه والأطفال من حوله يسخرون ويضحكون!...

العكّاز والقطّ الأسود والعجوز في البحر..القطّ يتخبّط في زبد البحر،موء مواء فظيعا،ينشب أظافره في ظهر العجوز..العجوز تصارع الموج وتتخبّط والموج يدفعها بعيدا عن الشاطئ..أحد الشبّان ينسبح في اتّجاهها وصبايا على الشاطئ يشجّعنه ويصفّقن..القارب التهمته النّار والصيّاد حوله ما زال يرقص ويبكي ويقهقه...وهو واقف ضائع وسط الزّحام والفوضى والضّجيج،عيناه بحر من الحزن..قلبه ينفطر ألَمًا فظيعا والجرح في صدره يشتدّ نزيفه..يشتدّ..يشتدّ..ويده تضغط على الكتاب..الكتاب كان قد قرأه معها منذ عام..يده الأخرى على الجهة اليسرى من صدره وما تبقّى من السّيجارة على الرّمل بين قدميه،وقدماه تغوصان في الرّمل وترتعشان...

فجأة،اختلج جسمه،تيبّست أطرافه،اصطكّت أسنانه وسقط على الرّمال حيث يموت الموج ويتكدّس الغثاء،ثمّ جعل يخور كالثور الخَصِيّ..كمن انتابته حالة من الصّرع..من زاويتي فمه سالت رغوة كالزّبد بيضاء،اختلطت بأعشاب البحر وغطّت رقبته وصدره..طافت عيناه عبر البحر والشاطئ وجبل بوقرنين الشّامخ الشّاهد على كلّ ما حدث ثمّ جحظتا إلى ثقب السّماء القريب البعيد وتسمّرتا لتستقرّا

هناك!...الْتَفَّ حوله النّاس..ضيّقوا عليه الخناق..منعوا عنه الهواء...

قال أحدهم:

– هاتوا مفتاحا ذكرا!..

وقال آخر:

– خرافات وخُزَعْبلات!..أين الطّبيب،فتّشوا له عن طبيب!...

وكثر اللّغط والهرج والهراء...

هرول طفل عار نحو الحلقة يبكي،ينادي أمّه الّتي أضاعها وسط الزّحمة...بين الأرجل..على الرّمال..نسي أمّه وانحنى يَلْتَقِطُ صفحة من بقايا كتاب كتب عليها:

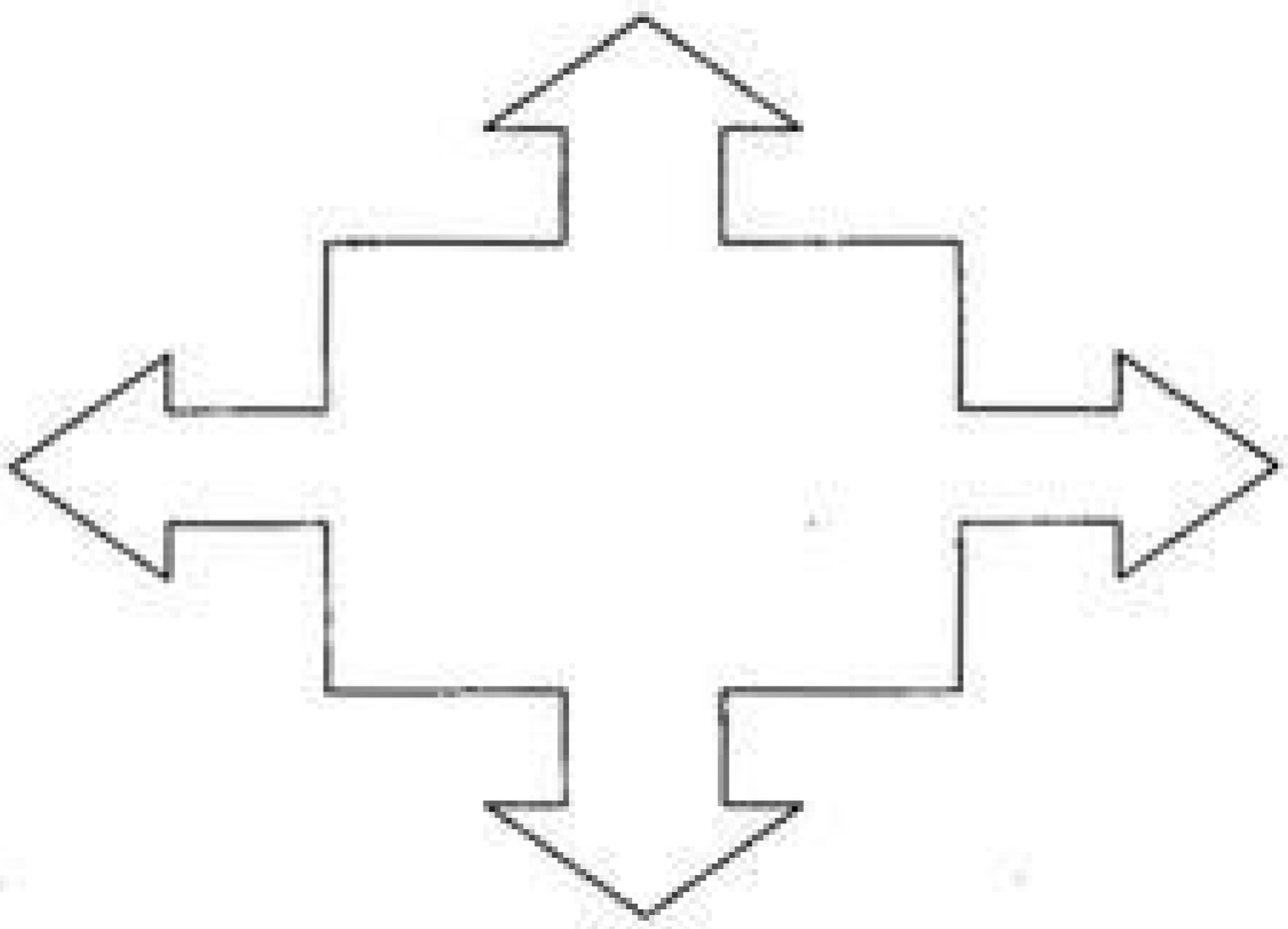
هاهو البحرُ ❁ ينحسرُ الآن

هاهو الرّملُ ❁ ينتصرُ الآن

هاهو الجرحُ ينفجرُ الآن

يَنْفَجِرُ الآن...! ❁

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الجنـــّة الضّائعة

قصة: نعيمة الوسلاتي

تتبدّد كتل الظلام الرهيب وتنحسر في جهد جهيد ونزاع طويل كأنها تريد أن تُطبق على صدر الوجود. تتبدّد وتتوارى فتنتشي الحياة وتُقبّل أسلاك الفجر الساحرة وأنسام السحر الفاتنة فتداعب أذيالها المرتعشة أعشاب المروج اليانعة وأكمام الزهور الخالمة وأندية الغمائم الطائحة ثم تزهر أضواء الصباح وتتصاعد أعمدة البخار وتتلوى راقصة وتتصهر في عذوبة الأجواء الدافئة معطرة بشذى الإكليل والسعتر والخزامى فتتسلل في رقة وبهاء لتنفذ إلى صدورنا فتتوهج أضواء وترتعش أحلام وتتمطّى أنغام وتذاع أسرار. أسرار أجدادنا وأمجاد آبائنا. أجواء ساحرة، أنوار ساطعة، سواق هادرة، جبال شامخة. تناديني فألبّي النّداء. أطأ أرضها أقبّل وطأتها فيتضوّع عطر أحدادي. أملأ كفّيّ من طيب عناصرها فأعانق أرواحهم وأداعب أضيافهم وألثم ذكراهم وأتيه بين أطلالهم. أستعيد أيام الطفولة أيام كان العود رقيقا والأفق رحيبا والذهن طليقا. أرتع بين أيديهم. أتوسّط أحضانهم وأنام ملء جفوني على سواعدهم. سواعد مفتولة لفحتها

الهاجرة وشحنتها العزيمة. تعمل بإيمان ومحبّة وصدق. تعمّر بطون الأرض فتثمر أرحامها وتعطي أكلها حبرا عميما ورزقا وفيرا.

أيام كانت العيون ضاحكة والقلوب عامرة والوجوه نيّرة مستبشرة.تضحك فتنطلق الضحكات صافية رقراقة كجداول منسابة تلغو بالخرير. تداعبها أنسام الغروب فتراقص أهدابها وتعانقها خيوط الأصيل فتصبغ شفتيها بحمرة الشفق الجميل. ثم تتوارى في هيبة وسحر عظيم.

حياة هانئة، ناعمة، تخلص من المشقة وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب. تصبح في نفسي الذكرى ويكبر بي الشوق فأحنّ إلى تلك الأحضان الدافئة. أدفن بين طياتها أشجاني. وتلك الأفندة العامرة أشكوها غربتي وضياعي ووحدتي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفاء ومحبة وشعور رقيق كامن في مستقره استحيي وتوهّج وتجلّت عنه تراكمات السنين فتراءت له تلك الأجواء الحميمة التي كان يسودها الترابط والألفة. أجواء سكنت ذاتي. خنت ملامحي. شكّلت طباعي وأفرزت روحا مهووسة، عاشقة وفية أبدا. رحت استمرئ تلك اللحظات الجميلة والسهرات الطويلة التي عشناها في دعة وراحة بال حول ذلك المصباح الزيتي الخافت حيث نستمع إلى حكايات جدّي فتشبع بحكمه وقصصه ونستمتع بطرائفه ونوادره.

جنسه هو المدرسة الأولى التي كنت أؤمها تعبة إخوتي وأبناء أعمامي. تعلمنا على يديه تلاوة القرآن وكتابة الحروف والأرقام وسرد القصص وحفظ الأحاديث.

كان جدّي شيخا وقورا لكنه كان صاحب دعابة. يضحك فتتراقص خيته الكتّة البيضاء وينفرج فمه الأدرد وتفيض عيناه بشرا ويشرق وجهه المتجعّد فيكشف عن حنكه وتجربة وتبصّر. يرصد تقلبات الطقس ويتنبأ بقدوم العواصف ونزول الأمطار وغالبا ما تصدق توقّعاته. له فراسة نادرة ونظرة ثاقبة.

اعتاد الجلوس على جلد خروف أبيض ناعم بعمامته المستديرة وسبحته الفضفاض وجبته الناصعة البياض. يمسك بمسبحته الفضية التي لا تفارق يده مسبحا مكبرا، مستغفرا. كان مضيافا وديودا، سباقا إلى فعل الخير. يحب الناس شديد التقشف في معيشته مؤكدا أن الكثير من أعمال البر قد فقدت استبطنتها إيمانا مني بمصداقيتها.

يرسلنا أحيانا إلى البستان لقطف الثمار وجمع الحشائش فنعتقد في سعادة لا توصف. نتراكض، نسابق الريح فتثير غبار الطريق. نتدافع ونسقط وتصاب بخدوش وجروح فلا نشتكي ولا نبالي. تلفح الريح أجسامنا الصغيرة وحرق الشمس وجوهنا الغضّة ولكننا لا نعبأ بذلك. نصعد الهضاب وننحدر في المنخفضات. نتسلق أشجار التين والتوت والخروب ونقطف ثمارها الحلوة الشهية.

نستحم في مياه السواقي والأنهار ونجلس حيث الظل والروح والجمال. ثم نعود ونقفز فوق أكوام التين في البيادر القريبة ونتأرجح بين أغصان الكروم. نركب ظهور الحمير فنسقط ونرسل الضّحكات مفعمة بالبراءة والغبطة والمسرة ثم نركب الآلات الفلاحيّة المتآكلة فيخيّل إلينا أننا نقودها ونستخدمها في حراثة الأرض وزراعتها فنشعر بالفخر والنشوة. لا أمل عندنا سوى أن نكبر ونغوص في أعماقها ونبذل قصارى جهدنا في خدمتها.

وعند الأصيل نشعر بإعياء فنعود إلى فناء الدّار وبطوننا خاوية. نتنطط كالفراش الطائر. تقبل جدتي نحونا في خفة ونشاط متورّدة الوجنتين، محمّلة بخبز تخاله أقراصا من التّبر. فيسبقها رنين خلخالها وحليّها الفضيّة. وترقص بين أقدامها أذيال ملاءتها ذات الخطوط العمودية والحزام الصّوفيّ. عطرها مسك وعنبر وطيب وحناء. تحرص جدّتي كثيرا على أن تكون أقراص الخبز ناضجة، رقيقة، حسنة الاستدارة، ذكية الرائحة. أما جدي فكان كثيرا ما ينوه بتلك الجودة قائلا:

- ما أطيب رائحة هذا الخبز وما أشهى مذاقه. لقد اجتهدت و أصبت يا زينة النساء... "

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تضحك جدّتي وتجلس بيننا فرحة مزهّوة.... كانت تهاب جدّي وتتفانى في خدمته وتحرص على إرضائه كل الحرص وهو يحفظ عهدها ويرعى ودّها ويكبر لطفها ويحسن معاشرتها.

نجلس كلنا حول مائدة مستديرة الشكل، قصيرة الأرجل. وضعت عليها أطباق بسيطة لكنها شهية. تفوح منها روائح القرفة والورد والزعفران. إنها تحرص كلَ الحرص على إعداد هذه الأطعمة اللذيذة بنفسها.تنهض مبكّرة وتنهمك في طبخها على نار الحطب الهادئة في أوان من فخّار صنعتها بيديها الكريمتين ونفسها الرّاضية القنوعة ثم تحرص على تقديمها ساخنة حتى لا تفقد نكهتها.تقدّمها بشغف كبير وحرص أكبر .تؤثرنا على نفسها، تطعمنا وتسقينا بيديها وتحثنا على الاستزادة حتى نشبع ونرتوي. نعود إلى اللّعب واللّهو والركض بنشاط أوفر ومرح أكبر كأنها قد أطعمتنا من رحيق السّعادة والحبور...عاطفة فطريّة فيّاضة ومودّة خالصة وعزيمة صادقة لم تثنها قسوة الطّبيعة ومشقّة الحياة في الرّيف .

ذكريات دفينة، تستثير عبرتي وتهيج أشجاني... ذهبت هناك إلى حيث يرقدون في هدوء وسكينة جلست بينهم، تلوت سورا كريمة ترحّما على أرواحهم الزكيّة. شعرت أن صدري يكاد ينشقّ عن قلبي حزنا ولوعة.... دنوت من قبر

جدّتي. لامست بأنامل مرتعشة لوحة الرّخام التي تحجبها عنّي... اهتزّت أوصالي، ارتعدت فرائصي، سرت قشعريرة في جسدي كله وارتجفت كلمات الحنين على شفتيّ... منذ سنوات عديدة ودّعتها هنا في هذه القرية الجميلة وفي هذه الرّبوع العامرة. كنت صغيرة جدا لكنني أذكر جيدا كيف أخذ الحزن يهجم عليّ فجأة بظلاله السوداء وهي تبتعد عني محمولة على الأعناق بين العويل والصياح والهتاف: "الله أكبر، الله أكبر"

كنت أتأملها بذهول عجيب. شعرت كأن رجليّ تغوص في الرّمل، كأنني أغور كليّا في هوّة سحيقة لا قرار لها. كأنني أغيب عن وطني، عن هويتي، عن ذاكرتي، كأنني أتلاشى وأغيب عن الوجود...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مرّت السنوات بطيئة، طويلة، قاسية لكن ظلالك الوارفة لازالت تغمر ذاتي يا جدتي ، تؤنسني، تخيّم على ذاكرتي...، أصوات رقيقة، ذبذبات لذيذة، رجع صدى يعزف لحن شجوني، يغرسني زهرة فتيّة في أيام عمرك الزاخر بالجد... دعني أحيى رأسي في صدرك يا "أميمة" . أحيى طفلة حزينة في جوع دائم إلى حنانك ودفء أحضانك، طفلة تريد أن تنهل من نبعك وتستزيد من فيض عطائك لسنوات الغربة واليتم والوحدة. طفلة تريد أن تصل أيامها بأيامك، تريد أن تستعيد الأمان والسّلام، أرهقها التشرد والضياع، تعبت من السفر

والترحال، تعبت من الركض والانتظار في محطات غريبة ومدن نائية.... دعيني ألملم شتات عمري بين يديك...

أحببت أن أقول لها كل ذلك... أحببت أن أهرق بين يديها دموع الشوق ...أحببت أن أشكوها همومي وأوجاعي فتنصت إليّ وتخفّف عني بعض ما أجد، لكنني أحسست أنها مشغولة عني كل الانشغال... بعيدة عني كل البعد.... طيف رهيب حال بيني وبينها، أسدل حجابا صفيقا دونها.... الموت .....هذا الطيف الذي يلازم الحياة كما يلازم الظل صاحبه، ما إن يقترب منك حتى يحوّل كل الأشياء الجميلة في حياتك إلى ركام من رماد، ثم يتسلل في صمت مريع وقد اغتال أحلامك وسرق جذوة الفرح من عينيك.

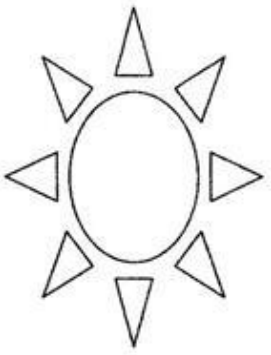
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

امتدّ بيننا في رهبة وقسوة. أحرق الكلمات التي تراقصت على شفتيّ... أخمد حرارة المحبّة وشغف الوصال وقطع الروابط الجميلة التي ألّفت بيننا وعسرت قلوبنا وأثلجت صدورنا وملأت حياتنا غنى وبهجة ومسرّة.... أفرغ كل ما تملك من دفء وصفاء وسلام في صندوق عتيق محكم الأقفال وختم عليه ثم رمى به في غياهب النسيان... أحسست كأنني نبتة اجتثت جذورها وانغرست في تربة أفرغها الانجراف وأضناها القحط والجفاف. لم يبق من نصيبي غير ذاكرة مبتورة يعشّش فيها الحزن واليأس.....!

تربّص بي ذلك الطيف وفي غفلة مني أخذ أحبّ الناس إلى قلبي وألقى بهم في دهاليز عميقة، ضيقة، مظلمة، باردة كحياتي، موحشة كهذا المكان الغريب... أحسست بغربة موجعة، ووحدة أوجع. تدفقت عبرات حرّى وانثالت كالرّذاذ على وجنتيّ ثم انهمرت في خيبة ومرارة... شهقات عنيفة تفجّرت، صرخات حزينة تعالت وتدافعت.... بكيت كما لم أبك أبدا.... بكيت تلك الجنّة الضائعة... تلك الحياة البسيطة، الآمنة، ذلك الدفء الأسري، ذلك الرضا وذلك السلام الباطني...

أطلقت العنان لعبراتي علّها تفكّ أغلالي وتجرف معها هموما أخرست لساني وأطبقت على أنفاسي... عساها تغسل أحزاني و تطهّر نفسي وتحمل لي الرّاحة والعزاء والسلوى...!

ذاك زمان قد ولّى ومضى واستحضاره أمر لاذع موجع، أليم....لملمت شتات نفسي وغادرت المكان كما أتيت بل ربما بأوجاع أكبر وهموم أكثر.....



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com